رؤى وتأملات

مختارات سردية

رؤى وتأملات ج2 (مختارات سردية)

سميح مسعود (أديب فلسطيني)

الطبعة العربية الأولى 2022.

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، مجمع المفلح التجاري (87)، ط 1. هاتف: 65620722،797162720 (962+)

alaan.publish@gmail.com،

alaanpublishers.com

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN:978-9923-13-499-3

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2040/ 4/ 2022)

813.03

مسعود، «محمد سميح» عبدالفتاح

رؤى وتأملات/ «محمد سميح» عبدالفتاح مسعود. عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

(222) ص

ر. إ: 2040/ 4/ 2022

الواصفات: / الأعمال الأدبية/ / الخواطر الأدبية/ / النثر الأدبي/ الأدب العربي

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

سميح مسعود

رؤى وتأملات

مختارات سردية

الجزء الثاني

إلى الصديقين:

جعفر العقيلي الكاتب المشرف على الملحق الثقافي لصحيفة الرأي

والكاتب هشام نفاع محرر الملحق الثقافي لصحيفة الاتحاد في حيفا

فهرس المحتويات

المدخل..9

الفصل الأول: أولى الكلمات 13

من حيفا أستمد حروفي..15

جريدة الاتحاد الحيفاوية عرفتني على بعض جذوري في فلسطين........18

الفصل الثاني: من وحي الأندلس 25

المناضل نجاتي صدقي بعيون إسبانية 27

رسالة الغفران لأبي العلاء المعري بعيون إسبانية 36

المستعربة الإسبانية كارمن رويث برافو عاشقة اللغة العربية.............42

خوسيه ميغيل بويرتا وعلم الجمال عند العرب 52

عندما كنا عرباً 59

فلسطينية تمتلك ثلاثة متاحف في قرطبة...65

الفصل الثالث: أمكنة لا تنسى 73

أيامٌ في حيفا...75

أيامٌ في كوبا 80

أيامٌ في الناصرة...92

أيامٌ في جبال الأوراس 98
أيامٌ في براغ 107
لا بدّ من تطوان وإن طال الزمن.. 113

الفصل الرابع: أيقونة النضال الأممي 119
أنطونيو التلحمي رفيق تشي جيفارا 121

الفصل الخامس: عــن الكورونا...131
صدى أيام مضت... استذكارات في زمن الكورونا 133
أيام الكورونا لا تُنسى 140
مقتنياتي التراثية... استعادة الذكريات لمحاصرة شبح «كورونا» 147

الفصل السادس: مختارات أخرى..159
الفنان محمد بكري: المتشائل بين المسرح والرواية.................. 161
سيدة القصة القصيرة 167
شباك غرفة نومي... 173
الفكر العقلاني عند العرب ابن رشد أنموذجًا........................... 178
أمين معلوف يتأفف من كلمة الجذور................................... 182
الموسيقى حلالٌ حلال.. 187
فتاة الترومبورن 193
هنا كانت قرية أجدادي هوشيلاجا.. 201
معروف الرصافي شاعر متصهين 210

المدخل

لم أنقطع منذ السبعينيات وحتى اليوم عن الكتابة في مجال الشعر والرواية وأدب الرحلات، ودفعني طموحي العلمي إلى أن أكتب أيضاً في مجال تخصصي في علم الاقتصاد مع إعطاء أولوية خاصة للتكامل الاقتصادي العربي مع التركيز على رؤية شمولية للتنمية في الدول العربية.

وبعد إحالتي على التقاعد في عام 2006، تأجج حسّي الأدبي وتوقفت عن الكتابة في مجال تخصصي العلمي، ودأبت على الكتابة الأدبية فقط.

وقد بلغ عدد الكتب التي نشرتها على مدى أربعة عقود خمسة وأربعين كتاباً، خمسة وعشرين كتاباً في مجال الشعر والأدب، وعشرين كتاباً في علم الاقتصاد، تم ذكر أغلبها في سيرتي الذاتية المثبتة في نهاية الكتاب.

ولا تفوتني الإشارة إلى اهتمامي في كتابة المقالة أيضاً، وقد نشرت منها في مجال تخصصي 140 مقالة، نشرت مجموعة منها في كتاب عنوانه «وجهة نظر اقتصادية» صدر في عام 2011 عن دار الشروق الأردنية.

ونشــرت 160 مقالـة أدبيـة في ثـلاث صـحف هـي: «الـرأي» الأردنيـة و«الاتحــاد» الحيفاويــة و«المســتقبل» الكنديــة، وفي مجلــة «النهضــة» الكويتية، وتكفي مراجعة عناوينها للتعبير عن اتساع آفاق مواضيعها.

وقد أعدت نشـر مجموعة منها في كتاب عنوانه «رؤى وتأملات» صـدر في عمّان عن دار فضاءات في عام 2012، وها أنا أعيد نشـر مقالات أخـرى غيرها في هذا الكتاب الذي يحمل عنوان الكتاب القديم نفسه ويعدّ جـزءاً ثانياً له.

أعيد نشــر هـذه المقـالات بنصـها الحـرفي دون تعـديل أو إضـافة كـما نشـرت في الصحف من قبل، وذلك من أجل توثيقهـا وحتـى تظهـر معـاً في كتاب جامع يسهل على القارئ الإلمام بها عند مطالعتها، وقد تم ترتيبها في ستة فصول وفق مواضيعها.

وأملي أن يكون هذا الكتاب من ضمن الأعمال التي يَنتفـع بهـا القـراء، وأن يساهم في إثراء المكتبة العربية.

سميح مسعود

عمّان حزيران 2021

ليس ثمة وسيلة كالكلمة ترشدك للعبور بسهولة
في خضم المحيطات الهائجة.

الفصل الأول

أولى الكلمات

من حيفا أستمد حروفي

كتابة النقطة الأولى في أول السطر ترهقني فكيف الحال بالكلمة الأولى... إنها الأصعب لأنها تفتح الباب لكلمات أخرى تتقافز بين السطور، أحني قلمي لها ليكتبها كلمة تلو أخرى، وأعترف أن أجمل الكلمات أستلها من مسقط رأسي حيفا.. كلمات موشجة بأصداء أيّام طفولتي الباكرة، أعيد فيها إحياء صور لي كثيرة تتشابك مع المكان في ذاكرة واحدة.

أعود دوماً إلى ذاكرة المكان، أواصل التأمل، وتستيقظ الذاكرة على حيفا، أجدها في مكانها الجميل تعانق أمواج البحر، تترامى على امتداد شاطئ تكمن فيه أيقونة تسلب الألباب، أستنشق منها شيئاً من أيامي الماضية، أراها في عيني أشد امتلاء وصفاء وأكثر قرباً... أطوف فيها، في كلّ أحيائها وشوارعها وأسواقها وضواحيها، أشكلها بمرايا زمن مضى كم كانت من قبل تعج بصور مشاهد وأحداث كثيرة، هي العتبة الأساسية لسطوري وحروفي.

مشاهد كثيرة من حيفا تشدني، تلوح أمامي بأضواء متوهجة، أنثرها على أوراقي، أسطرها بحروفي الصغيرة، أكتبها في نظرة استرجاعية حرفًا حرفًا، وأجمعها في صفحات موشومة بصور تتصل بما في حيفا من مآثر تراثية، وما فيها من أشجار في مدارات الكرمل العالية، وما فيها من دروب مثقلة بالندى، وأمواج تتمطّى في أحضان البحر، وبيوت تتناثر في كل الجهات، تعلو أغلبها شرفات مطلة على فيض مناظر ساحرة، وتحيط بها حدائق منزلية غناء منسقة بطريقة جميلة مزروعة بأجمل الورود... أنواع كثيرة من الورود تعرش على أسوارها وممراتها ومداخلها، يحمل منها النسيم العابر رائحة الفل والياسمين... رائحة زكية يملأ شذاها الأرجاء.

تردُ على ذاكرتي تلك البيوت أراها كما كانت من قبل، أغدو وأروح حولها... أدور ببصري يسرة ويمنة في كل جوانبها، أتنقل فيها من بيت إلى بيت بين أحياء حيفا الممتدة من أسفلها على مقربة من الشاطئ حتى قمة جبل الكرمل وانعطافات سفوحه ببساتينها المدهشة.

وأسترجع من أيام حيفا كل مشاهد حياتي الماضية، أتنقل فيها من مشهد الى آخر، أعيد فيها تكوين وجوه أناس عرفتهم أيام سنواتي الأولى، مشدود الأجفان أنظر إليهم، وأراهم تدب حركاتهم على شاطئ البحر، ويتناهى إلى سمعي صدى أصواتهم، تصل مقاطع أحاديثهم وحتى همساتهم إلى أذني، تغور في داخلي، وتشق طريقها بهدوء حتى الأعماق، وتشدني إلى أتلام جذوري البعيدة، وأنسى عذاب الشتات.

مرارة الغربة تَرُدّني دوماً إلى أيام مضت لا يطويها النسيان، أتحسّس فيها وميض ضوء أراه يحبو على أمواج بحر حيفا ينفضُ عن كاهلي عبء السنين، يُعيدني ثانية إلى حيفا عبر حروف أكتبها نثراً وشعراً، أمدّ بها خيطاً من التواصل مع أيام مزهرة مضت في طفولتي الباكرة، تفاصيل صُورها في أرجاء مشاهد كثيرة لا تزال باقية في نفسي حتى الآن... لن تختفي، ستبقى دائما جوهراً ثابتاً للروح حتى آخر لحظة في الحياة.

11 حزيران 2014

جريدة الاتحاد الحيفاوية
عرفتني على بعض جذوري في فلسطين

حاولت بالكتابة شعراً ونثراً أن أكون قريباً من الوطن، ومن مسقط رأسي حيفا وقريتي بُرقة، كتبت برغبة محمومة عن الهزائم والشتات والنكسات، وعن جذوري وجذور غيري من المعارف والأصدقاء، حاولت بما أكتبه أن أكون شاهداً صادقاً على تفاصيل أحداث أيام عشتها في وطني وفي منافي الشتات.

نشرت مقالاتٍ كثيرة في صحف عربية وكندية، وفي ذات يوم قررت أن أكتب في جريدة الاتحاد الحيفاوية، كتبت فيها قصيدة وعدة مقالات، منها مقالة نشرت بتاريخ 17 تموز 2009 بعنوان «البحث عن الجذور» بينت فيها اهتمامي بالبحث عن الجذور في فلسطين ما قبل النكبة، ليس من أجل البكاء على الأطلال، بل من أجل استحضار لمحاتٍ من حياة أهلنا الماضية، بمختلف مشاهدها وأحداثها وأوجاعها ومآثرها التراثية والعمرانية، بهدف توثيقها وتسجيل صفحات من التاريخ الشفوي بصوتٍ عالٍ ومزيد من الأقوال والتفاصيل.

كلّ هذا من أجل التأكيد على دلالات انتماء الآباء والأجداد للأرض الفلسطينية، ومعرفة القرى والمدن والحواكير والأشجار والبيوت وحتى

أتلام الأرض وأمواج البحر موجة موجة، وهكذا نكتب تاريخنا الحقيقي ونضفي على حقّنا بأرضنا وأملاكنا ومكتسباتنا طابعـًا توثيقيًّا يخفّف عنا منغصات هزائمنا وارتحالاتنا الدائمة.

عرّفت القارئ بانتمائي لحيفا كمسقط رأس لي، تعرفت فيها على الحياة، وأنني في سنّ العاشرة دخلت مرحلة تلقي واقع الاغتراب والنفي، هاجرت منها قسراً في يوم سقوطها، ولجأت مع أسرتي إلى قرية أهلي بُرقة.. تحجرت أحلامي وقتذاك وتراكمت في نفسي حالة وجدانية مؤثرة عن مآسي الهزيمة، ترسخت في ظل غربةٍ باكرةٍ لصبي صغير.

وبيّنت للقارئ أن مرارة الغربة تُرجعني دومـًا إلى أيام مضت لا يطويها النسيان، أتحسس فيها وميض ضوء أراه يحبو على أمواج بحر حيفا، ينفضُ عن كاهلي عبء السنين، يُعيدني ثانية إلى حيفا عبر حروف أنشرها في جريدة الاتحاد الحيفاوية، أمدّ بها خيطـًا من التواصل مع أيام مزهرة مضت في طفولتي الباكرة، لا تزال تفاصيل صُورها باقية في نفسي حتى الآن، لن تختفي، ستبقى دائمـًا جوهراً ثابتـًا للروح حتى آخر لحظةٍ في الحياة.

اتسعت الذاكرة في مقالتي عن الجذور، تطايرت منها أنقاض أيام عشتها مع أهلي في حيفا وبُرقة، نقاط وفواصل كثيرة شكلت بها بعفوية ومضات صور من عروق جذوري بين قرامي الزيتون في أتلامِ تمتد طويلاً طويلاً عبر السنين، بينت فيها مشاهد كثيرة متشابكة تتصل بجدي وأهلي وموروث عائلتي في بلدي، أردت بها استبدال حاضر الاغتراب البغيض

بمرآة واسعة يتداخل فيها الزمن الماضي بخيوط أحلام تعكس الوجه الحقيقي لامتداد جذوري عميقًا في فلسطين.

وبينت في نهاية مقالتي أنني أذكر أمثلتي عن الجذور التي تنثال صورها بوعي وعفوية في سطوري، ليس لأبناء جيلي المثخن بجراح الهزائم والشتات والكآبات والأحلام المختنقة، بل لأبناء جيل حفيدي ليث لإيقاظ طفولتهم على إشارات دالة ومؤثرة تعرفهم على جذورهم، وتنحت لهم في الذاكرة علاقة دائمة مع فلسطين، بِقُراها ومدنها، وترابها ورجالها وأوجاعها، تلاصقهم في نوازعهم وأمزجتهم وميولهم وطريقة تفكيرهم، وتمنحهم في غربتهم رؤية حقيقية عن وطنهم، تحضُهم دومـًا على استرداد حقوقهم الضائعة، والرجوع إلى أرضهم رافعين فيها راية العزة.

أحسستُ بما يكفي من الارتياح لأنني نشرت المقالة على صفحات جريدة الاتحاد الحيفاوية، لأنها تستثير حنيني إلى تلك الفترة من الطفولة الهنيئة التي عشتها مع أهلي في حيفا، وهي الجريدة نفسها التي كان والدي يتابع قراءتها في أربعينيات القرن الماضي ويتماهى بأفكارها، وكثيراً ما كنت أتصفحها بدون قراءة أي حرف فيها في مرحلة مبكرة عندما كنت صبيًا صغيراً، أذكر تمامـًا تلك اللحظات الخاطفة كما لو أنها كانت بالأمس.

***

بعد عدة أيام من نشر المقالة، وفيما كنت أتصفح بريدي الإلكتروني، عثرت على رسالة من سيدة لم أسمع بها من قبل، عَرفت نفسها باسم حسناء دراوشة من بلدة إكسال القريبة من الناصرة، استهلت رسالتها بعبارات مفادها أنها قرأت مقالتي المنشورة في الاتحاد، واكتشفت منها أني أمتُّ بصلة قربى مع جدتها «نجية».

بينت لي بوضوح في رسالتها أن أخوال جدتها يحملون اسم عائلتي، وذَكرت أدلة كثيرة بينها أسماءٌ لبعض أعمامي أثبتت لي بها بدقة حقيقة تلك القرابة، وبينت لي أن جدتها برقاوية في الأصل تزوجت جدها راغب شلبي، خلفت منه أولاداً وبناتٍ وعاشت معه طوال عمرها في إكسال، وأن النكبة أبعدتها عن أهلها في بُرقة، وبقيت حتى مماتها في شوق للقائهم، وكانت دومًا تكثر من ذكرهم في أحاديثها، خاصة خالها فارس المسعود.

داهمتني في تلك اللحظة أطيافُ وجوه من أقاربي تراكمت في ذهني، تصفحتها مرات ومرات بسرعة متناهية، تذكرت انطباعات بصرية أغرقتني في أحلام اليقظة، وجدت فيه وجه قريبتي «نجية»، تذكرت آخر مرة رأيتها فيها في حيفا قبل سقوطها بوقت قصير، أحيا ذكرها في نفسي أقرباء لي من بُرقة كانوا يعيشون في حيفا، منهم أخوها نجيب الذي كان يسكن على مقربة من بيت أهلي في شارع الناصرة، وكانت زوجته عريفة صديقة أمي وهي من إكسال أصلاً وابنه محمد من أصدقائي، وقد هاجروا معنا إلى بُرقة بعد النكبة.

راجعت كلّ ما يمكن مراجعته في ذاكرتي، وضعت وجه قريبتي «نجية» تحت منظار الفحص كثيراً، وجدت أن التواصل معها قد توقف قبل سقوط حيفا بشهور قليلة.. تذكرت أصداء كلمات سمعتها عنها من والديّ بعد النكبة، وها أنا الآن بعد أكثر من ستين عاماً تتعرف عليَّ حفيدتها مصادفة من خلال مقالة نشرتها على صفحات الاتحاد، وأبدأ بمدّ خيوط من التواصل مع نسلها، أحسست وسط هذه المستجدات بسرور عارم أنعشني في بلاد الشتات البعيدة في كندا، على تخوم آخر أطراف المعمورة.

وأحسست في الوقت نفسه باضطراب شديد لأن «التغريبة الفلسطينية» ساهمت في ضياع الجذور، الحياة فيها تسير في عجل، وكثيرون من أبناء ما بعد النكبة لا يعرفون ما خبأه الماضي من جذورهم، والخطر هنا لا يقف عند حدود ضياع الذاكرة الفردية فحسب بل يتعداها إلى ضياع الذاكرة الجمعية، وتحويل الأجيال الفلسطينية المتلاحقة في منافي الشتات إلى شيء مجهول خطير لا يعرفون فيه ماضيهم وأهلهم وناسهم، ما يعني ضرورة التعرف بوعي على الذات والآخر والبحث عن الجذور، وتدوين كل ما للوطن من إرث جذور متراكمة لتبقى محفوظة في مجرى الأيام، حتى لا تُنسى، وحتى تذكرها الأجيال القادمة، وتحيي فيهم وعياً دائماً للحفاظ على ثوابت هويتهم الفلسطينية.

أجبت على الرسالة التي وصلتني من حسناء دراوشة برسالة مطولة وجهتها إليها، عبرت فيها عن سعادتي بالتعرف على نسل عمتي «نجية»

التي كنت أراها في طفولتي ولها مكانة في خبايا ذاكرتي، وبينت في سياق رسالتي أن بدء التواصل مع نسلها يوقظ في داخلي ضجيج ذكرياتي في حيفا وبُرقة، ويرفع من آماد خيالاتي لأحلق أبعد وأبعد في بلادي، وأفتح فيها آفاقاً واسعة للبحث عن الجذور لي ولغيري في كلّ مكان، بما يساعد على تشكيل الذاكرة الجمعية الغائرة في عمق الزمان والمكان كالشجرة الظليلة في تشكيل الهوية والانتساب إلى الوطن.

بعد فترة قصيرة من الوقت زرت أقاربي الجدد من آل شلبي وآل دراوشة في إكسال، وجدت نفسي محاطاً بهم، غمرتني الفرحة، وشعرت بعد دقائق معدودة، أنني شديد القرب منهم وكأنني أعرفهم معرفة وثيقة منذ زمن طويل، أثنى الجميع على جريدة الاتحاد لنشرها مقالتي التي تم بها اكتشاف صلة قرابتي معهم.

من وحي هذه التجربة وتعرفي على أقاربي في إكسال صدر مؤخرا كتاب جديد لي عن دار الفارابي اللبنانية بعنوان «حيفا... بُرقة البحث عن الجذور» أعدت فيه رسم صور كثيرة مختلطة ومتشابكة لوجوه أناس كانوا ذات يوم حولي، عملت على حشدهم في سطوري مشكلين دائرة كبيرة.. أعدت أحاديثهم على صفحات كتابي وما قالوه قبل سنوات طويلة على الرغم من تباعد الزمان والمكان، التقيت بهم وأعدتهم ثانية إلى حيفا وبُرقة في غمرة عاطفة لا حدّ لها، أعدتهم إلى أرض لنا عشنا فيها أياماً تأبى النسيان..

31 تموز 2012

الفصل الثاني

من وحي الأندلس

المناضل نجاتي صدقي بعيون إسبانية

تعرفت على سيرة المناضل الفلسطيني نجاتي صدقي، من مذكراته التي أعدها وقدمها الشاعر الكبير حنا أبو حنا، الذي أجاد وأتقن إعدادها وأمتع القراء بها، قرأتها عند صدورها عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ولفت نظري محطات مثيرة في حياة المناضل الكبير، منها دراسته في جامعة «كوتف» الروسية، بعد سنوات قليلة من انتصار ثورة أكتوبر، وتمكنِه من الجمع بين العمل السياسي والأدبي والإعلامي.

تعرفت الكومنترن على قدراته، وكلفته بإصدار جريدة في باريس عام 1933، تنطق باسمها موجهة إلى العالم العربي، وقد أصدرها باسم «الشرق العربي» واستمرت حتى أواسط عام 1936 حين عطلها رئيس الحكومة الفرنسية، بيير لافال، نفسه الذي اتهم بالخيانة العظمى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، ونفذ فيه حكم الإعدام.

كما أوفدته الكومنترن أيضاً إلى إسبانيا، في أثناء الحرب الأهلية الإسبانية، لمساعدة الجمهورية في تحرير نشرات باللغة العربية للجنود المغاربة المحاربين مع فرانكو، وتجاوز نشاطه الكتابة فوصل إلى ساحة القتال، وخاطب المغاربة بمكبرات الصوت وقابل الأسرى، وكتب التقارير من الجبهة.

قرأت مذكراته قبل سنوات مضت، وحملت نسخة منها معي إلى إسبانيا عندما زرتها في نيسان الماضي، أردت قراءتها من جديد في مدريد؛ التي أقام فيها نجاتي أثناء الحرب الأهلية الإسبانية، وحملت معي أيضاً نسخة من رواية «عَليّ: قصة رجل مستقيم» للروائي حسين ياسين عن المناضل الفلسطيني علي عبد الخالق أحد رفاق نجاتي، الذي حارب مع الجمهوريين ضد الفاشية ولقي مصرعه في أرض المعركة، أردت قراءتها أيضا في مدريد، على مقربة من المكان الذي دفن فيه.

زرت إسبانيا بهدف التعرف على عدد من المستعربين الإسبان، لاستجلاء أفكارهم حول الحضارة الأندلسية، وما قدموه حولها من دراسات واكتشافات جديدة، تتصل بواقع الحياة المعاصرة، لا علاقة لها بالغزو والفتوحات وحكايا القرون الماضية.

لتحقيق هدفي بقيت في إسبانيا مدة شهر كامل، ولم يمض يوم دون أن ألتقي بواحد من المستعربين أو أكثر، ستبقى لهم في نفسي ذكرى لا تُنسى، ويرجع الفضل في تعرفي عليهم للصديقة «كريستينا رويث كورتينا» رئيسة «جمعية القدس للتضامن مع الشعوب العربية» ومقرها مدينة ملقا الإسبانية، لأنها زودتني بأسماء وعناوين كل الذين قابلتهم، وهي ناشطة معروفة بمواقفها المؤيدة للحق الفلسطيني، تربط جمعيتها علاقة خاصة بالمركز الفلسطيني لحقوق الإنسان ومقره غزة، وبمديره المناضل الكبير راجي الصوراني الحائز على جائزة نوبل البديلة.

في مساء يومي الثاني في مدريد التقيت بالنقابي سانتياغو غونثالث، الناشط من أجل فلسطين منذ ما يقرب من خمسة وعشرين عامًا، زار غزة ورام الله مرات كثيرة، وهو عضو في «التحالف الدولي لأسطول الحرية» الذي يتكون من مبادرات وحملات دولية من مختلف دول العالم، من أجل كسر الحصار المفروض على غزة، وهو عضو أيضًا في «حركة التضامن مع العالم العربي».

جلست معه في أحد مقاهي شارع القلعة، تجاذبنا أطراف الحديث في جو ودي، ركز في بداية حديثه على مدينته مدريد، أبحر في أعماقها الزمانية والمكانية، وأكد لي أنها مدينة أسسها العرب قبل ما يزيد عن ألف عام وكانت تعرف باسم مجريط، بعد ذلك اتسع مدى حديثه في تواصل سردي عن نشاطه واهتماماته بكل ما يتعلق بالشأن الفلسطيني، استرعى انتباهي تفاصيل دلالات كثيرة عن نضاله، كناشط قادر على إيصال صوته إلى المحافل الإسبانية والأوروبية.

تحدث عن بداية تواصله مع «بيت الشرق» في القدس، وعن زيارة له لرام الله برفقة أعضاء عشرة اتحادات عمالية نقابية أوروبية، للاطلاع على معاناة الشعب الفلسطيني الرازح تحت نير الاحتلال منذ سنوات طويلة، كما تحدّث عن مقالات كثيرة ينشرها بين الحين والآخر، يُسلط فيها الضوء بموضوعية على مستجدات القضية الفلسطينية، بمضامينها المحلية والإقليمية والدولية، وما يجري حولها على أرض الواقع.

وفي لحظة التمعت عيناهُ، وسألني مستوضحاً: «هل سمعت بالمناضل الفلسطيني نجاتي صدقي؟».

أومأت برأسي إيجاباً، وتحدثت عن مذكراته التي أحمل نسخة منها، تتضمن معلومات مسهبة عن نشاطه الوطني والأممي، وتنوع مواهبه في مجالات عديدة كالصحافة والعمل الإذاعي والأدب والترجمة، فقد عمل في إذاعة الشرق الأدنى، ونشر كتبه في سلسلة «إقرأ» المصرية، كما نشر قصصه في عدد من المجلات المصرية منها مجلة الرسالة الشهيرة، ومن كتبه في مجال الأدب، كتابه عن الشاعر الروسي بوشكين، الذي نال إعجاب الكاتب اللبناني ميخائيل نعيمة، وكتاب عن تشيخوف وآخر عن مكسيم غوركي.

التفتَ إلي «سانتياغو»، قائلاً: «يقدره الإسبان كثيراً، لنشاطه المميز إبان الحرب الأهلية الإسبانية، فقد أوفدته «الكومنترن» إلى إسبانيا، لتقديم المساعدة إلى الجمهوريين، في مجال تنظيم الدعاية العربية في الأوساط المغربية، وقد أبلى بلاءً حسناً في هذا المجال، كمسؤول عن تحرير النشرات الموجهة إلى الجنود المغاربة المنضوين تحت قيادة فرانكو، لإزالة الغشاوة عن أعينهم، سواء كانوا في ميدان القتال أو الأسر».

اتسع مدى حديثه عن نشرات نجاتي باللغة العربية، التي كانت توزع في جبهات القتال، ويوقعها باسم مستعار اتخذه لنفسه هو مصطفى بن جلا، وجد فيه رنيناً مغربياً.. خاطب باسمه هذا الجنود المغاربة للانضمام إلى صفوف الجمهوريين، حاول إقناعهم بأنَّ الجمهورية ستترك للمغرب

حرية تقرير المصير، ومن أجل تنظيم نشاطه الإعلامي، أسس مع مجموعة من الشباب الجمهوري، جمعية باسم «الجمعية الإسبانية المغربية» عينوا لها أمينة سرّ، واتخذوا لها مكتباً، وصنعوا ختما، وحُدّد هدفها بتنظيم الدعاية في جبهات القتال.

أسعدني حديثه عن نجاتي وعمق العلاقة الإسبانية الفلسطينية، المنقوشة في أغوار التاريخ، وعلى ضوء حديثه بينت له أن نجاتي ذكر في مذكراته، بأنه كان يشارك في ساحات القتال لمخاطبة الجنود، وأنه كان من المفترض أن يُنشِئ في الجزائر إذاعة ناطقة باسم الجمهورية الإسبانية، لتبث في دول المغرب العربي، إلا أن أسباباً فنية حالت دون ذلك.

استثرت حماسه، وأخذ يتحدث عن دلالات كثيرة تؤكد على أهمية تجربة نجاتي ودوره المميز في دعم الجمهورية الإسبانية في حربها ضد الفاشية، وأثار دهشتي عندما بيّن لي أن المخرجة المصرية المعروفة آمال رمسيس، اهتمت بتجربته وأنتجت عنه فيلماً بعنوان «تأتون من بعيد».

سرعان ما تحدث بعد ذلك في شرح أوسع عن الحرب الأهلية في إسبانيا، وتعقيبا على كلامه تحدثت عن المناضل الفلسطيني علي عبد الخالق الذي ناضل من أجل الجمهورية، حتى واراه الثرى في إسبانيا.

فوجئت بأنه لم يسمع بالمناضل علي وليست لديه أدنى معرفة بمناضلين فلسطينيين آخرين، حاربوا مع الجمهوريين ضد الفاشية، ومنهم من لفظ أنفاسه الأخيرة وفارق الحياة في أرض إسبانيا البعيدة.

وعـدني سـانتياغو أن يبحـث عـنهم في سـجلات الحـرب الأهليـة، وأن يطالب بنوع من التكريم لهم، ليعـرف الإسـبان أنّ ثلـة مـن أبنـاء فلسـطين، استجابوا عن وعي لمبادئهم الأممية النبيلة، في ثلاثينـات القـرن الماضـي، وتطوعوا من أجل الدفاع عن شرف الإنسانية.

فجأة فقدت خيط الحديث، سرحت صامتـًا أتأمل أطياف أفكـارٍ كثيـرة مرت بخاطري، حاولت فيها إيقاظ ذكرى مُناضلين من بلـدي قبـل النكبـة والشتات، قاتلوا بشهامة ورجولة في ساحة النضال والشرف.

أفقت من تأملاتي على صوت سانتياغو وهـو يقـول لـي: «هـل يمكننـي تصفح مذكرات نجاتي؟».

أخرجتها في الحال من حقيبتي، وأخذت أقرأ له بعض صفحاتها، بدأت بالمقدمة التي كتبها الشاعر حنا أبو حنا في مستهل المذكرات، وأدرك منها سانتياغو مدى الجهـد الـذي بذلـه كاتبهـا شـاعرنا الكبير؛ للحصـول علـى مسودة المذكرات وإعدادها ونشرها.

تفاجأ سانتياغو لمعلومات كثيرة عن نجاتي لم يكن على معرفة بها مـن قبل، منها دراسته في جامعة «كوتف» بموسكو بعد ثمانية أعوام من انتصار ثورة أكتوبر، وتقدير المسؤولين في الكـومنترن لقدراتـه ومواهبـه، وتعيينـه محرراً مسؤولاً عن صحيفة الشرق العربي الموجهة إلى الدول العربية من بـاريس، التـي كانـت تـدعو إلـى مناهضـة الاسـتعمار في الـدول العربيـة، ومناصـرة الحركـات الوطنيـة الاسـتقلالية، وشـنّ حمـلات علـى دولـة الانتداب في فلسطين.

بعدها قرأت له الجوانب المهمة من مذكرات نجاتي عن الحرب الأهلية الإسبانية، واتصالاته بالمسؤولين الجمهوريين أثناء الفترة التي تواجد فيها في إسبانيا.

دُهش سانتياغو لذاكرة نجاتي التي تحفظ التواريخ والأسماء والأماكن وكثيراً من التفاصيل المتعلقة، بأسماء الوزراء والمسؤولين في حكومة الجمهورية الإسبانية، وتذكره اسم وزير الزراعة «فيسنته أوربيه» المكلف بالشؤون المغربية، والذي عمل معه نجاتي طيلة وجوده في مدريد، وتذكره شارع «سيرانو» الذي أقام فيه بشقة، كان يكتب فيها النشرات الموجهة للجنود المغاربة، ومقالات للصحف التي كانت تصدر في مدريد، مثل «بوليتيكا» و«ألموندو أبريرو» و«كلاريدار» ومقالات أخرى لصحف عربية.

تملكتني رغبة في تلك اللحظة للتعرف على شارع «سيرانو» الذي عاش فيه نجاتي في مدريد، عبرت للصديق سانتياغو عن تلك الرغبة، وفي الحال غادرنا المقهى، ومضينا معا مشيًا على الأقدام في شارع القلعة، ومنه اتجهنا إلى عدة شوارع متقاطعة في وسط المدينة، اجتزناها وسرعان ما وصلنا الشارع المطلوب.

أدرت بصري في كلّ جهاته ضمن بعد مكاني واسع، ولاحظت ضخامة محلاته التجارية، وكثرة الناس الذين يتجولون على امتداده أفراداً وجماعات.. تمشَّينا فيه وأشار لي سانتياغو بيده؛ إلى بنايات كانت مقرات

أجهزة حكومية للجمهورية إبان الحرب الأهلية، وردد بصوت خفيض: «من المؤكد أن نجاتي كان يتردد عليها بين الحين والآخر».

واصلنا التجوال في نفس الشارع، وفي لحظة اقترح عليّ سنتياغو، أن نزور معاً متحف الملكة صوفيا للفنّ الحديث، للتعرف على لوحة «جورنيكا» من أجل استذكار ضحايا الحرب الأهلية، لأن بيكاسو رسمها بناء على تكليف من حكومة الجمهورية، واستوحاها من قصف طائرات ألمانية وإيطالية مساندة لقوات فرانكو، لمدينة جورنيكا في منطقة الباسك يوم 26 أبريل 1937.

وتكمن أهمية اللوحة في أنها تعرض في ثنايا مضمونها الدفين؛ عناصر جوهرية عن مآسي الحروب والمعاناة التي تسببها للبشرية جمعاء، تظهر فيها كإشعاعات تتجمع في بؤرة تختلط فيها الأفكار الإنسانية، وتصبغها بصبغة خاصة، تبرزها كلوحة تدعو إلى إعلاء مبادئ السلام في الحياة المعاصرة.

بعدها غادرنا شارع «سيرانو»، واتجهنا في طريقنا إلى متحف صوفيا للفنّ الحديث، وسرعان ما وصلنا المتحف المطلوب، ولجناه واتجهنا في الحال إلى الطابق الثاني حيث توجد لوحة «جورنيكا» التي تعد من أشهر لوحات القرن الماضي، نظرت أمامي ووجدت نفسي أمام اللوحة المنشودة في رحاب قاعة كبيرة.. لوحة جدارية ضخمة تبلغ مساحتها ما يقرب من سبعة وعشرين متراً مربعاً، عادت إلى إسبانيا عام 1981، إثر إرساء الديموقراطية فيها وعودة الحريات العامة.

على مقربة من اللوحة، وجدت في قاعات مجاورة لها، شواهد كثيرة تدل على خصوصيتها، منها فيلم يسترجع تفاصيل أحداث مؤلمة من أيام الحرب الأهلية، وخزائن زجاجية مليئة بالكتب والملصقات والصور، تؤجج حالة مفعمة بالمعاني الفكرية والسياسية، المعبرة عن رؤى ومفاهيم أتباع الجمهورية من أمثال بيكاسو، منها كتب بلغات متعددة، وصور لأهم زعماء الجمهورية، منهم دولوريس إيباروري، وسانتياغو كاريو.

وقفت مطولاً أمام تلك الخزائن، واستمر بصري بالتنقل بين خيوطها المتشابكة على اتساعها، وفي لحظة التفتُ إلى «سانتياغو» سائلاً عن إمكانية حفظ مذكرات نجاتي مع الكتب والصور والمنشورات المعروضة، لدوره المتميز في الدفاع عن الجمهورية، فأجابني بجدية واضحة: «سوف أرفع اقتراحك إلى الجهة المعنية بالمتحف».

سلمته كتاب المذكرات، ورفع يده مبسوطة في وضع القسم، وقال لي: «سأبذل كلّ جهدي لتكريم نجاتي بما يليق به في مدريد».

لاحقًا غادرنا المتحف، وسرعان ما تجولنا في عدة ساحات شهيرة وسط مدريد، منها ساحة «سانتا آنا»، حيث يوجد تمثال للشاعر الخالد «فيديريكو غارثيا لوركا»، شعرت بانفعالات كثيرة توالت في نفسي الواحدة تلو الأخرى وأنا أنظر إليه، بعدها عدنا أدراجنا إلى شارع القلعة، في وقت كان فيه الليل يُرخي سدوله على المدينة.

8 تشرين الأول 2018

رسالة الغفران
لأبي العلاء المعري بعيون إسبانية

يعتبر كتاب «رسالة الغفران» من دُرر الأدب العربي، له أثره وتأثيره في الأدب العالمي حتى يومنا هذا بعد ما يقرب من تسعة قرون على صدوره، تدور النقاشات حوله، ويعود البحاثة إلى كلّ جانب من جوانبه ذكراً واقتباسا، أملاه شاعر المعرة على كاتبه وهو في الستين من عمره، مزج فيه كل ما وعاه عقله من علم وثقافة وأخبار وأشعار وتوجهات فكرية، صاغها بطابع روائي.

وعلى امتداد هذا المسار، عرض المعري في كتابه صورا لرحلة فكرية خيالية على أكمل وجه، انتقل فيها من بيئته المكانية الواقعية إلى عالم الآخرة، استرسل بها بخياله الجامح إلى السماء العليا، وحاور في تفاصيلها شعراء وأدباء كثرًا في الجنة والنار، أثرى بحواراتهم الحياة الفكرية والفلسفية والثقافية والنقدية في أيام زمانه، كما أثرى الفكر الإنساني بشكل عام، وفي الوقت نفسه أثار كتابه هذا صخباً، وطال صاحبه المعري اتهامات الكفر والزندقة، وقد استندت هذه الاتهامات إلى حدّ كبير على التأويل الخاطئ لأفكاره، لكن التاريخ أعاد له اعتباره، ووضعه في مصاف أعظم الأدباء والشعراء في العالم أجمع.

ويكفي أنْ أذكر في هذا السياق أن طه حسين تفاعل مع أبي العلاء المعري على نحو قل نظيره، وبين رأيه فيه ببصيرة الأديب الناقد، وأستشهد بما قاله عنه بهذه الكلمات «ليس بين أعلام الضاد في تاريخها القديم والحديث على السواء، كاتبًا أو مصنفًا أو رجل علم وأدب، أو صاحب رأي أو حكمة، جمع في آثاره من ألوان الكتابة نظمها ونثرها، وضروب المعرفة وأشتات الفكر، ما جمع أبو العلاء المعري من هذه الأبواب جميعًا، فهو الشاعر والناظم وهو الناقد والشارح وهو الواعظ والمرشد، وهو صاحب حكمة وتفلسف وهو الأستاذ في كل هذه الوجوه».

وبالنسبة لي، أود التأكيد هنا بأنني لست بصدد التعريف بأبي العلاء المعري، ولا بعرض كتابه «رسالة الغفران» وإنما أرغب فقط بذكر أثر هذا الكتاب في الغرب، وقد تلمست ذلك أثناء زيارتي لمكتبة «الإسكوريال» الإسبانية في نيسان الماضي، وهي مكتبة فريدة يصفها الإسبان بأنها «ثامن عجائب الأرض» تضم بين جدرانها مخطوطات نادرة مختلفة في مواضيعها، كُتبت في حقبات زمنية مختلفة، منها مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية، لأهم الكتاب العرب بما فيهم كتاب الأندلس.

وقد تمكنت أثناء تجوالي في مكتبة «الإسكوريال» من التعرف على بعض المخطوطات العربية، واقتربت من التعرف على الماضي الذي تقاسمه الإسبان مع العرب في الأندلس، كما تمكنت من التعرف على أهمية كتاب «رسالة الغفران» لإسبانيا وأوروبا من تعدد ترجمته، فقد

ترجم إلى القشتالية بعد سقوط الأندلس بتوجيه خاص من ملك قشتالة وليون الفونس العاشر الملقب بالحكيم، كما طلب نفس الملك ترجمته إلى اللغتين اللاتينية والفرنسية القديمة، ومن ثم تم ترجمته إلى اللغة الإيطالية، مما ساعد على نشره مبكراً في أوروبا، والتعريف بمضمون مسائله الأدبية والفكرية المطروحة في رحلته العجائبية للآخرة، التي نالت اهتمام الكتاب والشعراء الأوروبيين، على امتداد عصور طويلة، حتى إنَّ بعضهم أدرج الكتاب على أساس حجج صحيحة، في إطار إرث إنساني استثنائي، لا يضاهيه كتاب آخر في مجاله.

ولا يسعني في هذا الجانب سوى التأكيد بثقة كاملة، بأن كتاب «رسالة الغفران» يُشكل إرثًا على جانب كبير من الأهمية للإنسانية جمعاء، ويستحق أن يدرج في قائمة الكتب الأكثر تأثيراً في تاريخ البشرية، ورغم قناعتي بأنّ استنتاجي هذا غاية في التعقيد، ومثير للجدل خاصة في زمننا الذي تسوده ظاهرة العزوف عن القراءة الجادة في الفكر والأدب.

ومن حُسن حظي أن زيارتي لمكتبة «الإسكوريال» مكنتني من التعرف على مثال قل نظيره، يثبت استثنائية كتاب «رسالة الغفران» ويؤكد بدون مبالغة على عظمة كاتبه، وأنه رغم مرور زمن طويل على رحيله فإنه ما زال موجوداً في فكره، وفي تفاصيل رحلته التي تشكل مادة للتذكر في كلّ الأزمنة.

والمثال الذي أنا بصدده يتعلق بالراهب الإسباني المستعرب «ميغيل آسين بلاثيوس 1871-1914» الذي اهتم بكتاب «رسالة الغفران»

وانكب على دراسته وتحليله فترة طويلة من الزمن، يقدرها بعضهم بربع قرن، ثم أصدر في نهاية المطاف على أساس دراسته الطويلة، كتابه الموسوم بعنوان «علم الأخرويات الإسلامي في الكوميديا الإلهية» وقد قدمه للأكاديمية الملكية الإسبانية بمناسبة تعيينه عضوا فيها.

وكان الكتاب كما وصفه الأكاديمي المصري الراحل عبد الرحمن بدوي «قنبلة كبرى» أكد فيها الراهب «بلاثيوس» بالحجة والبرهان تأثر الشاعر الإيطالي الكبير دانتي في تأليف ملحمته «الكوميديا الإلهية» برسالة الغفران لأبي العلاء المعري من حيث الأسلوب والمضمون، وبيّن هذا كلّه بحجج دامغة وقدرة تفسيرية عالية، تحمل في باطنها معاني دقيقة ورقيقة، تدل على اعتماد دانتي لفكر المعري الذي سبق به عصره وزمانه.

وفي ضوء النتائج التي توصل إليها الراهب «بلاثيوس» يلاحظ وجود فئة من كتاب أوروبا انتقدوا نتائجه بشدة، كما يلاحظ وجود فئة أخرى وقفت إلى جانبه، وبعيداً عن المفهوم التقليدي للتأييد والرفض، ظهرت كتب ودراسات ومقالات كثيرة تفيض بالدلالة على تأييده، ولعل أهم كتاب ظهر في هذا المجال للمستشرق الإيطالي «انريكو تشيرولli» نشرته مكتبة الرسل في الفاتيكان عام 1949، قدم فيه الدليل القاطع على صحة آراء الراهب «بالثيوس» حيث ثبّت بين دفتي كتابه الترجمة اللاتينية والفرنسية القديمة والإيطالية لرسالة الغفران التي تمت قبل ميلاد دانتي، وافترض اطّلاعه عليها في كبره، وتمكنه من الاعتماد عليها في تأليف «الكوميديا الإلهية».

هذا مثال عن إنجازات مستعرب إسباني، وهناك مئات من المستعربين الإسبان لهم إنجازاتهم المهمة في مجال نشر وحفظ التراث العربي، والدفاع عن القضايا العربية، ولكي أعطي الموضوع حقّه من التعريف، بدأت ظاهرة الاستعراب الإسباني في القرن الثاني عشر، ومنذ ذلك الوقت قدمت مجموعة متميزة من المستعربين الإسبان خدمات جليلة للتراث العربي في مجالات الفكر والأدب والعلوم تجميعًا وتحقيقاً ودراسة وترجمة ونشراً، وبخاصة التراث العربي في الأندلس المتعلق بالحقبة التاريخية التي كانت مزدهرة علمياً وثقافياً، وظهرت فيها أفكار ابن رشد التنويرية التي يعتبرها الغرب تمهيداً للعلمانية الحديثة.

الاستعراب الإسباني في مجمل إنجازاته ومضامينه يتصل بالتراث العربي الأندلسي ببعديه المادي والرمزي في آن معاً، ولعل أفضل من عبر عن هذا الجانب المستعرب الأندلسي «أدولف رييس» في عبارة مؤداها: «ما يهمّنا نحن الإسبان قبل كلّ شيء من التراث العربي الأندلسي هو حيويته واستمراره في عاداتنا الأكثر حميمية، إنه ليس مجرد موضوع علمي، إنه مظهر من مظاهر العنصر العربي المتواجد دوماً فينا، يطفو كما الذكرى الحميمة».

وهذه النتيجة لا تقلل من اهتمام الاستعراب الإسباني بالحقائق العربية الحديثة والمعاصرة، وقد أكد على هذا «بيدرو مارتينيث مونتابيث» عميد المستعربين الإسبان في الزمن الحالي، بكلمات جازمة بين فيها «أنَّ معرفة الحقائق العربية الحديثة والمُعاصرة ودراستها يستحقان القدر نفسه من

الاهتمام، الذي يولى للدراسات التراثية الأندلسية المتعلقة بالعصور الوسطى».

هذا موضوع واسع بلا ريب، وبعيداً عن الدخول في التفاصيل، ثمة دلالات كثيرة تؤكد على أنّ الاستعراب الإسباني في الحقبة الحديثة، قد حقّق إنجازات مميزة، مطعمة بحقائق الزمن العربي المعاصر.

23 نيسان 2019

المستعربة الإسبانية كارمن رويث برافو
عاشقة اللغة العربية

تعرفت عليها في البداية من قراءة سيرتها الذاتية، وعلمتُ أنها متقاعدة في الوقت الحالي، تمارس نشاطها في البحث والتأليف والمساهمة في المؤتمرات والندوات، بعد أنْ قضت سنوات عمرها في التدريس الجامعي، كأستاذة كرسي في اللغة العربية وآدابها (الأدب والفكر العربي المعاصر) بجامعة مدريد المستقلة، كما حاضرت في جامعات إسبانية، منها جامعة إشبيلية ضمن برنامج الدكتوراه «الأندلس في الفكر العربي المعاصر» والمعهد الإسباني العربي الثقافي في مدريد، الذي كان تابعاً لوزارة الخارجية قبل أنْ يتمَّ إغلاقه.

وتشير سيرتها إلى أنها مديرة دار نشر «كانتارابيا» التي أسَّستها عام 1985، وخصصتها للثقافة العربية المعاصرة والعلاقات الإسبانية العربية، كما أنها تشارك في إدارة المجلة الإسبانية «أديار ابيا» الخاصة بالثقافة العربية المعاصرة، وكانت عضواً في لجنة رئاسة جمعية الصداقة الإسبانية العربية، والجمعية الإسبانية للدراسات العربية، ونالت العديد من الجوائز، مثل جائزة التضامن مع العالم العربي، من جمعية الصحفيين العرب في إسبانيا، وكانت عضواً في لجنة جائزة الشيخ زائد، وتنحصر

اهتماماتها الحالية كمستعربة تنتمي إلى الإنسانية، في مجال المذكرات والحوار في مجال التعايش الأيديولوجي.

لفت نظري في سيرتها أنَّ لها بصمات كثيرة في مجال التأليف والترجمة، ومن الكتب التي ألفتها: «الجدال الإيديولوجي في المشرق ما بين النزعة القومية الوحدوية والنزعات القطرية (1918 – 1952)»، و«الثقافة الفلسطينية»، و«القدس»، و«المرأة في العالم العربي»، و«سير ذاتية في العالم العربي»، و«مسارات في فلسطين العربية مع بلبل ولينا»، و«ألف ساعة وساعة»، «كتاب تعليمي»، و«أوروبا الإسلامية سحر بثقافة ألفية»، وهو كتاب مشترك مع عميد المستعربين الإسبان بيدرو مارتينيث مونتابيث.

ولها إنجازات ملحوظة في مجال الترجمة، فقد ترجمت من اللغة العربية، مجموعة من الأعمال الأدبية المهمة لكبار الكتاب والشعراء العرب، من أمثال طه حسين، جبران خليل جبران، نزار قباني، عبد الوهاب البياتي، الدكتور داهش، أدونيس، أمين الريحاني.

***

التقيت بها ذات يوم في مدريد، وحال لقائي بها قالت لي باللغة العربية: «أهلا بكَ في مجريط».

أجبتها: «هل تعنين مدريد؟».

قالت: «نعم هذا هو اسمها مجريط عندما أسسها العرب، واسمها الحالي عربي الأصل محرف من اسمها القديم».

وبينما كنا نرتشف القهوة، سرعان ما عادت «كارمن» في حديثها إلى «مجريط».. ألقت إضاءات تاريخية على العاصمة الأوروبية الوحيدة التي تحمل اسماً عربياً.

وفي الحال سألتها عن أصل الكلمة، فأجابت بأنها ممزوجة باللغتين العربية واللاتينية، الشق الأول منها عربي «مجرى» يشير إلى جريان المياه، والشق الثاني لاتيني وهو «إيتو» ويعني الكثرة أو الوفرة لتدفق المياه من حولها، وبهذا تعني مجريط مجاري المياه الوفيرة.

وعن أصولها التاريخية، بيَّنت لي أن الأمير القرطبي محمد الأول هو الذي أسسها، كان طموحًا، بدأ عهده بحركة تمدن عمراني واسعة، أنشأ الحصون والقلاع، كما أنشأ مجريط التي تحولت إلى واحدة من أهم الحصون، أحاطها بسور وشق لها المجاري المائية في جوف الأرض، لنقل المياه إليها من أعالي الجبال المحيطة، تحافظ عليها السلطات المختصة في الزمن الحالي رغم عدم استخدامها.

والأبلغ تأثيرًا فيما سمعته عن مجريط، هو وجود آثار منها ما زالت ظاهرة للعيان في مدريد، عبارة عن بقايا سور كان في الماضي جزءاً من الحصن الذي يحمي المدينة، يصعب التعرف عليه لعدم وجود علامات إرشادية تشير إليه.

وبينما كانت الأفكار تدور في رأسي حول مجريط، قلت لمحدثتي: «هذه معلومات غير معروفة وكأنها منسية».

أجابت: «نعم، التاريخ العربي لمدريد يلفّه النسيان، لا تذكره كتب التاريخ المعاصرة».

ثم أضافت: «رغم وجود عشرات المصادر التاريخية القديمة، التي تؤكد على أنَّ مجريط بناها العرب، واستمرت تحت حكمهم طوال فترة طويلة من الزمن، فإنه لا توجد في الزمن الراهن إشارات رسمية إلى تاريخها العربي».

قلتُ لها في حماس زائد: «ما دور المستعربين في هذا الشأن؟».

قالت: «يوجد مجموعة من المستعربين في طليعتهم عميدهم بيدرو مارتينث مونتابث وأنا منهم، ومعهم بعض الأدباء والشعراء والنشطاء، يطالبون بلدية مدريد منذ فترة من خلال المنتدى الثقافي العربي الإسباني، للاعتراف بالأصل العربي للعاصمة، ولحماية وصيانة الآثار العربية، وخاصة السور».

وتعقيباً على كلماتها الأخيرة، قلتُ: «ما هو دور المستعربين في الزمن الراهن في إسبانيا؟».

قالت: «مهمتهم اليوم هي كسر الحواجز الأكاديمية الخالصة، ومحاولة الخروج إلى المجتمع من أجل نشر الثقافة العربية، وأنا بصفة شخصية أساهم في حوارات برامج إذاعية وتلفزيونية في هذا الشأن، وأحسّ بمدى اهتمام الناس بهذه البرامج من خلال تعليقاتهم وأسئلتهم التي يوجهونها عبر الاتصالات الهاتفية».

تابعت حديثها في هذا الجانب الثقافي، بلغة المستعرب العالم بالثقافة العربية، وبيَّنت لي أن سبب اهتمام المستعربين بنشر الثقافة العربية في الزمن الراهن، يرجع في أساسه لكون الأدب الإسباني سواء الذي كتب منه باللغة الإسبانية أو الكتلونية أو غيرهما، فإنه استنبت في مجرى نهر الأدب العربي، وحتى جوهرة الأدب الإسباني «دون كيشوت» ولدت من أصول عربية، ومهمة المستعربين الآن أن يعرفوا القارئ الإسباني على الأدب العربي المعاصر، لأنَّ الأدب هو السبيل الأهم للتعرف على العرب.

توقفت عن الحديث بُرهة ثم أثارت دهشتي حين استرسلت بالحديث عن اللغة العربية، وعشقها لها، وفي الحال سألتها: «لماذا اخترت اللغة العربية؟».

لمست جبهتها بأصابع يدها اليمنى، كأنها استذكرت أمراً مهماً، وقالت: «لأنها لغة جميلة لغة فنّ وشعر وبيان، قابلة للتجديد، ومن أغزر اللغات من حيث المادة اللغوية».

سكتت لحظة، ثم قالت: «أعجبني الشعر الأندلسي بفنونه الشعرية المتنوعة، كما شدَّني الشعر الحرّ المعاصر باللغة العربية، وتأثرت في البداية بابن خفاجة، من أعلام الشعراء الأندلسيين، الذي ينحدر من بلدة صغيرة من أعمال بلنسية، وهو شاعر غزل يغلب على شعره الوصف».

التفتُّ إليها، وقلت: «يعجبني شعره، يوحي بمعانٍ جمالية وتعبيرية كثيرة».

استهواني الحديث عن ابن خفاجة، وأخذت أردّد معها أبياتـًا من شعره الجميل:

وَعَشِيِّ أُنسٍ أَضجَعَتني نَشوَةٌ		فيهِ تُمَهِّدُ مَضجَعي وَتُدَمِّثُ
خَلَعَت عَلَيَّ بِهِ الأَراكَةُ ظِلَّها		وَالغُصنُ يُصغي وَالحَمامُ يُحَدِّثُ
وَالشَمسُ تَجنَحُ لِلغُروبِ مَريضَةً		وَالرَعدُ يَرقي وَالغَمامَةُ تَنفُثُ

ولا أغفل ما قالته أيضـًا، أنها اهتمت من الكتاب بأمين الريحاني، لتأثرها بكتابه الشهير ملوك العرب، وهو مفكر وروائي وأديب ومؤرخ ورحالة ورسام كاركاتير لبناني، يعد من أشهر دعاة الإصلاح الاجتماعي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في الوطن العربي، ويلقب بفيلسوف الفريكة نسبة إلى قريته.

توسع الحديث بعد ذلك ودار حول الأدب العربي واللغة العربية والقضية الفلسطينية، اتسعت الرقعة المكانية والزمانية في أحاديثنا، وبينما كانت تعيد لمحات صور من أيام دراستها الجامعية، فاجأتني عندما تحدثت عن زيارتها لبيروت في ستينيات القرن الماضي، لمقابلة شخصيات كانت مشهورة في ذلك الوقت في مجال الفكر والسياسة، للحصول منهم على معلومات تفيدها في إعداد أطروحة الدكتوراه.

وهنا سألتها: «ماذا كان موضوع أطروحتك للدكتوراه؟».

أجابت: «الجدال الإيديولوجي في المشرق ما بين النزعة القومية الوحدوية والنزعات القطرية (1918 – 1952)».

اتسع شرحها، وهي تحدثني عن اهتمامها بالدول العربية في هذا المجال، وبيّنت أنَّها التقت في أثناء زيارتها لبعض الدول العربية بعدد من الأدباء والباحثين والمفكرين، منهم أنيس صايغ، هشام شرابي، قسطنطين زريق، نقولا زيادة، وليد الخالدي، نجيب محفوظ، إحسان عبد القدوس، عبد العزيز الأهواني، خالدة سعيد، أدونيس، نزار قباني، نديم البيطار، وأكدت على أنها استفادت كثيراً من أحاديثها مع أنيس صايغ المفكر والباحث الفلسطيني الشهير، كما استفادت من مجلات وصحف قديمة وضعها تحت تصرفها، عندما كان مديراً لمركز الأبحاث الفلسطيني في بيروت، وجدت فيها ضالتها من المعلومات المفيدة لأطروحتها لنيل الدكتوراه.

عبرت لها عن إعجابي بموضوع أطروحتها، لأهميته للدول العربية، وبَينت لها أنَّ محصلة الدروس المستفادة من تجارب العقود الماضية المتلاحقة، أثبتت تفوق التيار الوطني القطري، وفشل التيار الوحدوي التكاملي في وقت تتجه فيه دول العالم بخطوات واسعة نحو التكامل، وأكبر مثال على ذلك الدول الأوروبية، التي تمكنت من إشباع رغباتها وآمالها الوحدوية بإقامة الاتحاد الأوروبي، بينما الدول العربية منكفئة في إطار حدودها القطرية، في ظلّ تداعيات التجزئة والتشرذم والانقسام التي تعيشها في الزمن الراهن.

سألتني: «متى بدأ اهتمامك بالتوجهات الوحدوية العربية؟».

قلتُ: «منذ يفاعتي، وموضوع أطروحتي لنيل الدكتوراه، كانت عن الوحدة الاقتصادية العربية، ومع الأيام زادت قناعتي بأنَّ الدول العربية، غير جادة بتحقيق أية درجة من درجات التكامل الاقتصادي فيما بينها، ولهذا أصبت بالخيبة منها لعدم جديتها في توفير الإرادة السياسية الواعية والصادقة اللازمة لتجاوز حدود القطرية الضيقة».

وأضفت مستدركًا: «هذا يؤلمني، لأن تشرذمها أضرّ بقضيتي الفلسطينية».

تعقيبًا على كلماتي الأخيرة، أخذت كارمن تتحدث عن القضية الفلسطينية، استدركت في سياق حديثها حرب حزيران، سمعت بها من الأخبار التي بثتها الإذاعة على الهواء مباشرة، وقد تأثرت كثيرًا بنتائجها المفجعة، وكانت على دراية بما يجري، لأنها قبل الحرب بعام قرأت كتابًا عن الصراع العربي الإسرائيلي باللغة الإسبانية عندما كانت في السنة الجامعية الثانية، وحصلت منه على معلومات مفيدة عما يجري في الشرق الأوسط، كما أنَّ فيلم لورانس العرب الذي شاهدته في تلك المرحلة المبكرة من الستينات، والذي تناول سيرة جاسوس بريطاني خدع أبصار العرب، أدركت منه أيضًا معاني خفية عن المؤامرة التي حيكت ضد فلسطين وبقية الدول العربية المشرقية.

بعدها اختلطت السنون، وأصبحت أكثر قُربًا من الفلسطينيين، تقف معهم في كل لحظة من لحظات مأساتهم، تحاول أن تساعدهم في تضميد جراحهم التي تُنكأ في كل يوم جديد.

فجأة أخرجت كتابا من مغلف كبير كانت تضعه أمامها، وقالت لي: «هذا كتاب لي عن فلسطين».

قلت لها: «الكتاب باللغة الإسبانية».

وبادرتني قائلة: «عنوانه باللغة العربية، مسارات في فلسطين مع بُلبل ولينا، أساسه مضامين تعريفية نسجتها عن مدن فلسطينية، غزة ويافا وحيفا، تشتمل على صور للمدن والبيوت والطيور والزواحف والأشجار، وعدد من الخرائط للتعريف بفلسطين، كيف كانت أوضاعها الجغرافية في الماضي، وكيف هي الآن تحت نير الاحتلال».

أكدت على أنَّ هدفها تعريف القارئ الإسباني على الظروف الفلسطينية، تَخيلت في الكتاب محطة سكة حديد يافا ووجدتها شبيهة بمحطة «الإسكوريال» القريبة من مدريد، وتخيلت محطة سكة حديد حيفا وعلاقتها مع بيروت، وذكرت في الكتاب كريمة عبود من يافا التي تعتبر المصورة الفلسطينية الأولى، كما ذكرت صديقي عدنان الأيوبي، أعطت لمحة عن رحيله مشياً على الأقدام مع أسرته غداة حرب الأيام الستة، من رام الله إلى أريحا ومنها إلى رام الله بكل ما رافق رحيله من مشاهد قاسية، وأثارت دهشتي عندما أعلمتني بأنها ربطت في حيثيات الكتاب بين قريتها وغزة، وأدخلت جدها في طيف مشاهد متخيلة لها علاقة بفلسطين.

توالت انفعالاتي حول كتابها، وجدت حروفه تحرك أوتاراً موسيقية بنغمات إنسانية، تعلو في نسق كلي متجانس، تعطي إشارات إنسانية

واضحة عن علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، ووقوفه معه لتضميد جراحه مع تتابع الليل والنهار.

استمر بصري بالتنقل بين صفحات الكتاب.. التفتت إليَّ قائلة: «سوف يُترجم قريباً إلى اللغة العربية حتى يتعرف عليه القارئ العربي».

قلتُ: «آمل أن يقرأه أبناء غزة، ليعرفوا أن لهم صديقة في مجريط، تعبر عن همومهم في عمق وأصالة».

لاحقًا حدثتني عن كتاب جديد تنوي تأليفه، باسم «هاني وأماني» يدور في نصوصه السردية حول البحر الميت، وعدتها أن أرسل لها ما تريده من معلومات، حول جوانب متعلقة بالبحر الميت وطبيعة اليابسة المجاورة له. وقبل أن نفترق عرفتني على حديقة فلسطين في إحدى ضواحي مدريد.

13 كانون الأول 2020

خوسيه ميغيل بويرتا
وعلم الجمال عند العرب

تعرفت على المستعرب الإسباني «خوسيه ميغيل بويرتا» الأكاديمي المتميز، من متابعتي لنتاجه الغني والمتنوع، بعموميته المتسعة الملمة بجوانب كثيرة من الحضارة الأندلسية، المرتبطة بمواضيع شديدة الخصوصية والعمق، منها فن الخط العربي وعلم الجمال عند العرب، بكل ما فيه من كنوز معرفية، تتسم برحابة المدى ودقّة البحث.

حاولت الاتصال به خلال السنوات الثلاث الماضية، بحثت عن عنوانه الإلكتروني وللأسف لم أتمكن من الحصول عليه، وشاءت الصدف أن يزودني به «أنتونيو لاثارو غوثالو» مدير معهد ثربانتس في عمّان، وحين وجهت في نيسان الماضي خطام مطيتي إلى غرناطة، التقيت به وجهًا لوجه، وخلال لقائي الأول معه لم أتمالك نفسي من الفرح، عندما أخبرني عن حيثيات حياته الذاتية بأن له علاقات أسرية مع بلاد الشام، فزوجته نيروز بكور عربية الأصل من مدينة يبرود السورية، وعديله سعيد نسيبة، فلسطيني ينتمي إلى عائلة مقدسية، تحمل مفاتيح كنيسة القيامة منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب، وهو تقليد مستمر حتى الآن.

بينت له أن امتداداته الأسرية توحي بالتأمل، تعبر عن إعادة الوصل بين الأندلس وبلاد الشام، من خلال علاقات أسرية خاصة في قالب عصري.

بدأنا لقاءنا الأول، بالتحدث في مواضيع لا تحدّها محددات، أطلق لمخيلته العنان بالتحليق في غرناطة الأمس واليوم، وفي لحظة حدثني عن الشاعر الأسطوري لوركا، أدخلني في تجاذب مع تفاصيل حكايا كثيرة تخصّه، استحضر فيها معلومات منقوشة في ذاكرته، استطعت استشفاف جزيئات منها، تؤكد على أنَّ الشاعر الغرناطي قد تأثر تأثراً كبيراً بعمر الخيام، ويظهر ذلك بجلاء من فحوى أول قصيدة نظمها في حياته بعنوان «أغنية حلم والتباس» مؤرخة بتاريخ 29 يونيو 1917، وفي أول مقالة له كتبها في شهر أكتوبر من العام نفسه بعنوان «تعليقات حول عمر الخيام» التي وقعها باسم «أبو عبد الله».

فاجأني «خوسيه» بإحضاره نص أول مقالة كتبها لوركا ونص أول قصيدة نظمها، وقد ترجم المقالة والقصيدة إلى اللغة العربية وأرفق مع المقالة تعقيبه عليها، كما أحضر عدة كتب من مؤلفاته باللغة العربية، قدمها هدية لي بمناسبة زيارتي غرناطة.

طفق يتحدث باللغة العربية عن لوركا وعشقه لغرناطة وعن نهايته المأساوية، أسمعني عنه ما لم أسمعه من قبل، وفي لحظة وجدتني أساله عن سرّ تحدثه باللغة العربية بطلاقة واضحة، ولدهشتي علمت أنه تعلمها بعصامية فائقة خارج نطاق الدراسة الأكاديمية، اعتمد على جهوده الخاصة لعدم وجود مدارس رسمية ونظامية لتعليم اللغة العربية، مستعيناً بالكتب وسماع الإذاعات والفضائيات العربية.

أكد لي أنه تعلم اللغة العربية كي يتعرف على الكتابات المنقوشة على جدران قصر الحمراء، بكل ما تنبض به من مفردات عذبة الإيقاع.. سحره القصر مبكراً ومن أجله درس تاريخ الفن، وكان عنوان أطروحته لنيل درجة الدكتوراه، «تاريخ علم الجمال عند العرب»، كرس عشر سنوات من عمره لإنجازها، وقد بلغ عدد صفحاتها ألف صفحة، قدم فيها مادة متشعبة في مضامينها استهلّها بالشعر الجاهلي وحتى ابن خلدون، وقد تمّت ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية في العام الماضي، وصدرت في كتاب تم إشهاره بحضوره في جامعة نيويورك في نيسان الماضي.

بيّن لي أنه لا يوجد علم واحد للجمال عند العرب، وإنما يوجد اتجاهات متعددة، تتشعب في مجالات العقلانية والصوفية والروحانية والدينية، استمتع بالتعرف عليها، من خلال قراءته أعمالاً لكثير من الفلاسفة من أمثال الكندي والفارابي وأبو حيان التوحيدي، وابن رشد وابن باجه وابن طفيل وابن خلدون وغيرهم.

بعدها حدثني عن عمله في الزمن الراهن بعد انضمامه إلى جامعة غرناطة قبل ستة عشر عاماً، حيث يعمل أستاذاً في تاريخ الفنّ، وينصبُّ اهتمامه في عمله على تعريف طلابه بكل ما يتعلق بملامح الجمال عند العرب في فنونهم المختلفة، وبكل ما يتعلق بجماليات الخط العربي، وساعده عمله هذا على تثبيت دعائم علاقات متميزة مع المستعربين الإسبان، والكثيرين من أهل الفكر والبحث من العرب، العاملين في الجامعات والمراكز الثقافية في داخل الدول العربية وخارجها، منهم

صديقه كمال بُلاطة الرسام التشكيلي الفلسطيني المعروف، المقيم في الولايات المتحدة الأمريكية.

واتضح لي مما سمعته منه، أنَّ إنجازاته متشعبة في مواضيع متعددة في مجال الأدب والتراث الأندلسي، أصدر حتى الآن مجموعة من الكتب، منها كتاب بعنوان «البنية الطوباوية لقصور الحمراء» ويعني بالطوباوية هنا المثالية، وكتاب عن الخط العربي باللغة الإسبانية عنوانه «مغامرة القلم» وكتاب باللغة الإنجليزية «Reading The Alhambra» ورواية «فقير في بلاط الحمراء» باللغتين الإسبانية والعربية، وكتاب «الحمراء عن قُرب الدليل المصور لزيارة الحمراء وجنة العريف»، وهو إنجاز مشترك مع آخرين، يعتبر أول دليل لقصر الحمراء باللغة العربية.

ومن كتبه أيضاً «شعرية الماء في الإسلام» باللغتين الإسبانية والإنجليزية، و«معنى قرطبة الفني» بالإسبانية والإنجليزية، و«النزعة الإنسانية والفنون الجمالية في الثقافة العربية» و«معنى فنون وعمائر قرطبة الأموية».

وفي مجال الترجمة، له إنجازات ملحوظة، منها روايتان للروائي الفلسطيني غسان كنفاني، «عائد إلى حيفا» و«رجال في الشمس» كما ترجم روايتين للروائية السورية غادة السمان: «بيروت 75» و«القمر المربع»، وترجم لأدونيس كتاب «الصوفية والسريالية».

ومن الاستدلالات التي تؤكد تميزه، كتابه «مغامرة القلم» وهو من الكتب النادرة، أصدره في عام 2007، ويقع في 424 صفحة، بين لي أنه

وثّق فيه تاريخ الخط العربي بأشكاله وعناصره الفنية والجمالية، وعرف خطاطيه من الخطاطين والخطاطات الذين اشتهروا بهذا الفنّ الجميل، من خلال أربعمائة سيرة ذاتية مثقلة بموروث قيّم من المعلومات، استمده من دراسات وكتب مرجعية ورسائل كثيرة حول الخط العربي منذ ابن مقلة وحتى الزمن الراهن، وفيه تعريف تفصيلي بأنواع الخط الأندلسي، المعروفة برشاقتها وعناصرها الزخرفية المتعددة.

علمت منه أيضًا أنّ له إنجازاته المشتركة مع الغير، وبخاصة مشاركته بالتأليف والإشراف مع «خورخي ليرولا» من جامعة المرية، في إنجاز موسوعة «مكتبة الأندلس» ساهم في إنجاز هذا المشروع الضخم الذي استمر العمل فيه أحد عشر عاماً من 2000-2011، بمساهمة حوالي 166 مستعرباً من إسبانيا وخارجها، بينهم باحثون عرب منهم بكري علاء الدين، أستاذ سوري في جامعة السوربون الفرنسية متخصص بالمخطوطات، وباحثون من جامعة أوكسفورد الإنجليزية، تعاونوا مع فريق الموسوعة في مجال أعمال محيي الدين بن عربي.

أعلمني أنَّ الموسوعة تتضمن كامل السير الذاتية والإنتاج المكتوب لثلاثة آلاف من المؤلفين الأندلسيين، ممن ولدوا في الأندلس أو أقاموا فيها فترة من الوقت، وهم مجمل المؤلفين الذين توجد معلومات عنهم وعن مؤلفاتهم في المصادر العربية، تمّ تعريف مئات منهم بهذا العمل الضخم لأول مرة، كما تتضمن الموسوعة عشرة آلاف من المؤلفات الأندلسية، وقد جرى استكمالها وتمَّ إصدارها في تسعة أجزاء من الحجم

الكبير، عن دار ابن طفيل للنشر في المرية، كلّ مجلد منها يقع في 600-700 صفحة، وهو إنجاز بكل المقاييس غير مسبوق.

دُهشت لما ذكره عن هذا العمل المتميز، ودُهشت أيضاً لأن دار النشر التي أصدرت الموسوعة، تحمل اسم ابن طفيل، وعندما استوضحته عن سبب تسميتها بهذا الاسم، أجابني، بأنه من أطلق عليها هذا الاسم لتقدير لوركا بابن طفيل وإعجابه بفكره وفلسفته.

استوضحته ثانية عن أكثر المؤلفين إنتاجاً في أعمالهم من المذكورين في الموسوعة، فأعلمني بأنه محيي الدين بن عربي، لديه أربعمائة عمل دُونت على اتساع 185 صفحة من الحجم الكبير، علماً بأنه يُنسب إليه ألف عمل، ويأتي بعده ابن حزم الظاهري فقد دُون له في الموسوعة مئة وأربعون عملاً ويُنسب له أربعمائة عمل، وكتابه الشهير «الُمحلّى» وحده يتكون من أحد عشر جزءاً، كما أن لابن رشد في الموسوعة ما يقرب من سبعين عملاً.

وفيما كنت منهمكاً في تسجيل ما ذكره عن الموسوعة على أوراقي، أضاف معلومة مهمة مفادها أنّه تمّ مع الموسوعة إنجاز خمسة عشر كتاباً، في مواضيع علمية مختلفة من أيام ازدهار الأندلس، تعطي مدلولات واضحة عن جوانب مهمة من النهضة العلمية الأندلسية، توفر للقارئ المعاصر مفاتيح قراءة تلك النهضة، ممن ساهموا في رسم معالمها وتأسيسها.

ونستشف من كلّ هذا، أنّ نتاجات خوسيه تؤكد على أنّه كاتب كبير، يجيد المزج بين معالم الحضارة الأندلسية، ودور العرب فيها في كلّ مناحي المعرفة، تمكن في كتاباته من إزاحة الستار عن مفاتن الجمال وسحر التراث الأندلسي، بما يتضمنه من تفاصيل دقيقة، كما ألقى أضواء مهمة على مواضيع بالغة التعقيد، أحالها بأسلوبه الشيق إلى أنساق فكرية بالغة المتعة.

16 تشرين الثاني 2018

عندما كنا عرباً

عنوان هذا المقال ليس من بنات أفكاري، إنه عنوان كتاب لعاشق من عشاق اللغة العربية البروفيسور الإسباني إميليو غونثاليث فيرين من جامعة إشبيلية، التي يدرس فيها الفكر العربي والإسلامي، وله خبرة ومعرفة حقيقية عميقة بالثقافة العربية المعاصرة، لمعرفته بالدول العربية، خاصة وأنه عمل أستاذاً زائراً في جامعتي القاهرة ودمشق، وكتب كتباً ومقالات كثيرة في مجال اختصاصه، وحاز على جائزة «خوفيانوس» للمقالة، كما اهتم بتاريخ الشطرنج، ودافع دائماً عن أهمية الحوار العربي الأوروبي.

التقيت به في مدينته إشبيلية، في يوم ربيعي مشرق جميل، وقد تمّ اللقاء في رحاب «مؤسسة الثقافات الثلاث» وبين لي في بداية اللقاء أنّ هذه المؤسسة قد أسست في عام 1998 بمبادرة أندلسية مغربية، لدعم قيم التسامح والسلام والحوار، وتعزيز التعاون بين الشعوب والثقافات في منطقة البحر الأبيض المتوسط، من خلال عقد المؤتمرات والندوات وتنظيم المعارض الثقافية، وهي تجسد في أهدافها الحضارة العربية في الأندلس، التي جمعت بين العرب والإسبان واليهود في تعايش ثقافي واجتماعي مشترك، لم تعرف الأمم القديمة مثيلاً له.

وفيما كنت أجمع شتات أفكاري حول الثراء المعماري لمبنى المؤسسة، التقط «إميليو» طرف الحديث، وأخذ يتحدث عن الاستعراب

في إسبانيا، وتأثير الفونس العاشر الحكيم على دعمها بعد استرداد الأندلس، ثم تحدث بإسهاب عن أهمية اللغة العربية في الثقافة الإسبانية، وذكر قاموسًا بالكلمات العربية في اللغة الإسبانية، ألفه المستعرب «بيدرو دي الكلا» في القرن الخامس عشر، وذكر أعمالاً مهمة في مجال اللغة العربية لصديقه المستعرب «فيديريكو كورنتي»، منها القاموس العربي الإسباني، والقاموس الإسباني العربي.

وجدت متعة بحديثه عن اللغة العربية، وبينما كنا نحتسي القهوة، توقف عن الحديث فجأة، وسلمني كتاباً كان يحمله بيده، ثم قال تلقائياً: «أهديك هذه النسخة من كتابي «تاريخ الأندلس» باللغة الفرنسية وهو من إصدار المؤسسة».

شكرته على هديته، وفي لحظة أخذ يتحدث بحماسة ظاهرة عن كتابه، وما ذكره بين دفتيه من معلومات، عن أسماء مهمة لها مكانتها العلمية والفكرية في تاريخ الأندلس من أمثال ابن رشد وابن حزم وابن طفيل، ولهم تأثيرهم الكبير في عصر التنوير الأوروبي، وأكدت له في سياق حديثه، على اهتمامي الزائد بفكر ابن رشد التنويري، الذي استبق به عصر التنوير بفترة طويلة.

وبينما كانت الأفكار تدور في رأسي حول الحضارة الأندلسية وأبعادها، سألت «إميليو» مستوضحًا عن الكتب التي أصدرها حتى الآن، ردّ علي بإسهاب عن كتبه، ثم ذكر كتابًا بعنوان أثار اسمه دهشتي «عندما كنا عربـًا ».. لاحظ استغرابي من سماعي العنوان، فكرّره مرة أخرى،

وبيَّن لي أنه قدمه ووقعه قبل فترة وجيزة من الوقت في إحدى قاعات «البيت العربي» في مدريد، وأنه سيزور بيروت لتقديمه في الجامعة الأمريكية.

وهنا وجدتني أسأله بحماس زائد: «هل لك أن تعرفني على كتابك بكلمات موجزة؟»

فأجابني قائلاً: «أكدت في كتابي على أن الإسبان كانوا عرباً بشكل حقيقي لفترة تزيد عن خمسمائة سنة، كانوا عرباً بطريقة تفكيرهم وطريقة كتابتهم ومعارفهم وحتى نظرتهم الأخلاقية للحياة والمجتمع، وأنهم بالإنجازات العلمية والجغرافية والفلكية والفلسفية التي حقّقها العرب والتي امتلكها الإسبان عندما كانوا عرباً، استطاعوا أنْ يبنوا مبراطوريتهم العظمى».

وأضاف مستدركاً أن كريستوفر كولومبوس هو ابن المعرفة الجغرافية العربية الإسبانية، وأنّ اللغة الإسبانية كانت تكتب بحروف عربية، وتسمى «الخاميدو» وكانت منتشرة بين المسلمين والمسيحيين واليهود السفرديم، بينما كانت اللغة العربية الفصحى لغة الأدب والدين والعلم.

ثم بيّن لي أنه تطرق في كتابه لكل الأسماء التي أثرت فعلاً في النهضة الأوروبية، وركز كثيراً على ابن طفيل، معتبراً أن قصته «حي بن يقظان» أخذ منها الكاتب الإنجليزي «دانيال ديفو» قصته الشهيرة «روبنسون كروزو»، التي نشرت سنة 1719، كما أخذ عنها الكاتب الإنجليزي

«روديارد كبلينغ» شخصية الفتى ماوكلي «بطل مجموعته القصصية في كتاب «الأدغال»».

وبين بكلمات منتقاة بعناية بأن قصة «حي بن يقظان» هي أعظم وأجمل قصة فلسفية صوفية رمزية في كلّ العصور الوسطى، أثارت شغف الأدباء والفلاسفة والمتصوفين والمفكرين لقرون عديدة، وتمَّت ترجمتها إلى أكثر من أربعين لغة حتى زمننا الراهن، لا ينافسها في هذا أي عمل عربي آخر، وتمكّن فيها ابن طفيل الإجابة عن أسئلة كثيرة حول الوجود والحضارة، من خلال التفكير والتأمل، واستطاع بهذا إنشاء مذهب فلسفي كلامي خاص به، يعترف له الكثيرون، بأن ما قام به هو أهم وأقدم محاولة إبداعية في هذا المجال.

تحدث عن أسماء أخرى ذكرها في كتابه، وتكلم في هذا الشأن عن شخصية الطبيب والفيلسوف ابن سينا، الذي عُرف بإتقانه أربع لغات، وكانت كتبه تدرس في كل جامعات أوروبا، واستطاع شفاء أمراض كثيرة لم يعرف العالم طرقاً للشفاء منها، كما تحدث عن ابن رشد وفلسفته العقلانية، وعن فكر ابن خلدون الذي أثَّر كثيراً على النهضة الأوروبية.

وأنهى حديثه لي باقتباس من المستعرب الإسباني المعاصر «خوليو سامسو» مؤرخ العلوم العربية الأندلسية في جامعة برشلونة: «لولا ما فعله العرب، أو الإسبان عندما كانوا عرباً في مختلف العلوم، لما كان هناك احتمال بحدوث النهضة الفكرية والعلمية التي نراها اليوم».

ثم استطرد بالتحدث عن العلامة ابن خلدون؛ مبينـًا أنّ إشبيلية نظمـت معرضًا دوليـًا في عام 2006 تحت رعاية الملك كارلوس، في ذكرى مرور ستة قرون على وفاة ابن خلدون ذي النسب الأندلسي ومؤسس علم الاجتماع، شارك فيه بعض الرؤساء العرب، واستمر قرابة خمسة أشهر، بمشاركة مجموعة من الدول العربية والأوروبية، قدمت في المعرض وثائق ومخطوطات، ذات صلة بالقرن الرابع عشر الذي عاش فيه ابن خلدون.

كما أقيمت على هامش المعرض ندوات وفعاليات ثقافية في إشبيلية وبعض المدن الإسبانية، وسعى المعرض من كلّ هذا التعريف بعظمة التقدم الثقافي والفلسفي والتجاري والسياسي في منطقة البحر الأبيض المتوسط، ودعا إلى دعم العلاقات التاريخية والثقافية بين البلدان المتوسطية، وتقوية الحوار الثقافي بين الشعوب.

التفتُ إليه، قائلاً: «هل كرمت إشبيليا غير ابن خلدون؟».

أجابني: «تمّ تكريم شعيب أبو مدين، بإقامة نصب تذكاري له في قريته قطنيانة القريبة من إشبيلية، وهو شاعر ومتصوف، تتلمذ عليه محيي الدين بن عربي، ولقبه بمعلم المعلمين».

ثم تابع حديثه قائلاً: «إشبيلية تذكر بفخر واعتزاز أبناءَها النابغين في العلم والشعر والأدب والفلسفة، من أمثال: شيخ المتصوفين محيي الدين بن عربي، والشاعر ابن فرح الإشبيلي، والشاعر ابن هانئ الأندلسي، والطبيب ابن زهر الإشبيلي، وغيرهم».

نظر «إميليو» إلى ساعة يده، وهو يقول: «لدي محاضرة بعد نصف ساعة، ولا بدّ لي من اللحاق بطلابي في الجامعة».

شكرته على الوقت الذي خصني به، وبعد مغادرته تجولت في حديقة المؤسسة، وجدتها واسعة مزروعة بأشجار النخيل والليمون والزيتون والبرتقال، ووقفت أمام شجرة زيتون زرعت بمناسبة الذكرى السبعين للنكبة الفلسطينية بحضور شخصيات رسمية من مدريد وإشبيلية.

31 أيار 2021

فلسطينية
تمتلك ثلاثة متاحف في قرطبة

تُعرف المتاحف حسب مصادر المجلس الدولي للمتاحف «ايكوم» بأنها مؤسسات ثقافية لجمع وعرض التراث الحضاري، الفني والطبيعي والصناعي والتاريخي من قرون غابرة، لتعريف الأجيال المتلاحقة على ما طواه الزمن البعيد من أنماط حياة الأمم السابقة في شتى المجالات، بما في ذلك أبنيتهم وفنونهم ومخلفاتهم المادية بمختلف أنواعها المتوارثة.

وزيارة المتاحف على جانب كبير من الأهمية، تساعد على تعميم الثقافة ونشر المعرفة، وتنشيط الحركة الفنية والعلمية، كما تساهم في تنمية الحسّ الجمالي والذوق الفني لدى الزائر العادي للمتاحف، بغض النظر عن خلفياته الثقافية، ولهذا تشكّل المتاحف حسب مصادر «اليونيسكو» أداة أساسية لتحقيق التنمية الثقافية، والحفاظ على التراث الثقافي الإنساني وحمايته ونشره.

وتقسم المتاحف إلى متاحف حكومية وأخرى خاصة، وتعتمد المتاحف الخاصة على الجهود الشخصية لهواة جمع التحف والمقتنيات التراثية، التي يفوح منها عبق التاريخ، ولهذه المتاحف أساليبها في استقطاب الزوار، كما تنال دعم وتسهيلات الجهات الحكومية المختصة، حتى تتمكن من تحقيق غاياتها.

زرت مدينة قرطبة الإسبانية الشهيرة بالمتاحف وشواهد الحضارة الأندلسية، وشاءت الصدف أن أتعرف على ثلاثة متاحف خاصة وقفت وراء تأسيسها سيدة فلسطينية، اسمها سلمى التاجي الفاروقيّ... تمكنت بالتعاون مع زوجها المفكر الفرنسي الراحل روجيه جارودي من تأسيس متاحف خاصة بهما، تعرفت عليها من النشرات السياحية الصادرة عن الجهات الحكومية الرسمية، كمتاحف لها مكانتها الرفيعة وتميزها منذ عقدين ونيف من الزمان، ولها بصمتها الخاصة ضمن معالم قرطبة التاريخية المهمة.

زرت في البداية متحف «البيت الأندلسي» وموقعه في شارع «خودييوس 12» في المدينة القديمة، على مقربة من تمثال ابن رشد، ونصب تذكاري لولادة بنت المستكفي والشاعر ابن زيدون.

اشتريت تذكرة للدخول، ودلفت إلى الداخل، وجدت بصمات كثيرة تدل على أن البيت تاريخي يعود إلى القرن الثاني عشر، له فناء فسيح تتوسطه نافورة، ينبثق الماء منها ويسقط على جنباتها بانسياب، وفيه عدة غرف، تتسم في خصائصها المعمارية بالذوق الفني الأندلسي الرفيع، وبخاصة أعمدتها وأقواسها المزينة بقطع الزليج السيراميكية، وقد تمّ ترميم البيت من قبل صاحبته السيدة سلمى التاجي الفاروقي وتمَّ افتتاحه كمتحف في عام 1997.

جلت ببصري بكل جوانبه، وشاهدت ما يضمه من قطع أثرية أصلية، من تحف ولوحات وأثاث وقطع فسيفساء وكتب قديمة تراثية، وبعض

النقود والعملات الفضية، التي كانت متداولة في الأندلس وقت ازدهارها، وأدوات استخدمت في صناعة الورق في زمن مضى، كانت فيه قرطبة رائدة في صناعة الورق، خاصة أنّ العرب هم الذين أدخلوا الورق إلى الأندلس وأوروبا لأول مرة.

اتجهت بعد ذلك إلى الشخص المسؤول عن المتحف، وأبديت رغبة بالتعرف على السيدة سلمى، وفي الحال اتصل بها عبر الهاتف، وجاءتني من مكتبها في الطابق الثاني، تعرفت عليها، ودعتني للجلوس معها في إحدى الزوايا، ثم أفاضت بالتحدث عن مقتنيات المتحف، وفي سياق حديثها أعلمتني أنها أسست في البيت المجاور له، متحفًا آخر للكيمياء، يختص بالتعريف بتطور هذا العلم إبّان ازدهار الحضارة الأندلسيّة، بعدها حدثتني عن المتحف الثالث الذي أشرف على تأسيسه زوجها الراحل روجي جارودي في «القلعة الحرّة»، بموجب عقد مع بلدية قرطبة مدته 49 عامًا.

أسمعتني الكثير عن قرطبة اليوم، التي استقرت فيها منذ ثلاثة عقود، كما تحدثت في تواصل سردي بأبعادٍ متعددة، عن ماضيها قبل ألف عام كمدينة متميزة في أوج مجدها وإشعاعها الحضاري، كان يسكنها نحو ربع مليون إنسان، ويرى بعض المؤرخين المعاصرين أنَّ عدد سكانها تجاوز نصف المليون.

واصلت حديثها مُبيِّنة أنَّ قرطبة كانت تزخر بأحياء نموذجيّة على اتساعها، فيها قصور ومنازل بذوق فني رفيع، وحدائق وحمامات عامة،

وفيها شوارع مرصوفة بالحجارة، ومضاءة ليلًا بينما كان الظلام يعم أوروبا، كما كانت تزهو بمدارس ومستشفيات ومكتبات قلَّ مثيلها، وجامعة من أوائل الجامعات في العالم، يؤمها الطلاب من داخل الأندلس وخارجها.

استمتعت بما تنعم به ذاكرتها من معلومات عن الحضارة الأندلسيّة، ردّدتها على مسمعي في سياق منظومة معرفيّة متشابكة وشائقة، سجلت جزءًا منها على أوراقي، وتبين لي من أحاديثها على مستوى الدلالة والمعنى مدى عشقها لمدينة قرطبة، وما يستتبع ذلك من عشق للأندلس بموروثها الغني بعناصره الروحية والمادية.

بعدها ودعت محدثتي، واتجهت إلى متحفها الثاني، متحف «الإكسير» الخاص بعلم الكيمياء عند العرب، وجدت تمثالًا للكيميائي جابر بن حيّان عند مدخل المتحف، وهو أول من استخدم الكيمياء في التاريخ، عاش في الكوفة، وتنحدر أصوله من سوريا ولا علاقة له بقرطبة، لكن كتبه ودراساته اشتهرت في الأندلس وترجمت إلى اللاتينية في العصور الوسطى، وبقيت تدرس في أوروبا لقرون عديدة. وبينما كنت أتجول في المتحف وجدت نشرة تعريفية ترصد إسهامات (ابن حيّان) في علم الكيمياء، يتضح منها أنه اخترع في زمانه عددًا من الحوامض، منها «حامض الكبريتيك» الذي أسماه «زيت الزّاج»، وهو الذي عرف العالم على ماء الفضة، وماء الذهب، وملح النشادر

والبوتـاس، وتكريـر المعـادن، وصبـغ الأقمشـة، ودبـغ الجلـود، وطـلاء القماش المانع لتسرب الماء، وغيرها من الإسهامات الأخرى.

وثمّة إشارات واضحة في المتحف إلى إسهامات علماء الأندلس في علم الكيمياء، منهم: ابن أسد الخشني، ومسلمة بن أحمد المجريطي الذي تمتع ببراعة في علم الكيمياء في المجال النظري، وفي ميدان التجارب العملية التي كان يجريها بنفسه، وأضاف من خلالها الكثير لعلم الكيمياء، كما يتضمن المتحف على معلومات عن علماء آخرين، ومجموعة من الأجهزة الكيماوية القديمة التي ابتكرها العلماء العرب، ومجسمات لأشخاص منهم يتحدثون عن الكيمياء، عبر أجهزة حديثة يسمعهم من خلالها زوار المتحف.

وبينما كنت أنظر بإعجاب إلى بعض الأدوات الكيماوية المعروضة في المتحف، التفت إليّ أحد الزوار الإسبان واسمه «غونزالو» قائلًا باللغة الإنجليزية: «هذا المتحف مفخرة من مفاخر قرطبة»، ثم أضاف مبتسمًا: «وصاحبته مفخرة لفلسطين».

وافقته على رأيه بالمتحف وبصاحبته، واقترحت عليه أن نزور معًا متحفها الثالث... وافق على اقتراحي واتجهنا من فورنا إلى القلعة الحرة، على الجهة الجنوبية من القنطرة الشهيرة الممتدة فوق نهر الواد الكبير، وصلناها وابتعنا تذكرتين للدخول، ومن ثم دخلنا، وأول ما لفت نظري وجود كتب تعريفية كثيرة معروضة للبيع باللغة الإسبانية وبعض اللغات

الأوروبية، منها كتب عن ابن رشد، وعبد الرحمن بن خلدون، ومحيي الدين بن عربي، وموسى بن ميمون، وابن حزم.

بعدها دخلنا قاعة كبيرة في الطابق الأرضي، يمكن تسميتها بقاعة الحوار الحضاري، فيها تماثيل طولية لأربعة من مشاهير الفكر والفلسفة في التاريخ الأندلسي، وهم: ابن رشد، وابن عربي، وابن ميمون، وألفونس العاشر الملقب بالحكيم، يتحاورون ويسلطون الضوء على أفكارهم التي تدعو إلى المحبة والتآلف والتعايش المشترك بين الناس على اختلاف منابتهم ومعتقداتهم، تابعت حوارهم باللغة العربية باستخدام سماعات خاصة تثبّت على الأذنين، كما تابعهم غونزالو باللغة الإسبانية باستخدام السماعات نفسها.

اتجهنا بعد ذلك إلى غرف أخرى، دخلنا واحدة في الطابق الأرضي، معروض فيها اسطرلابات، وفي صالة أخرى أرضية عند المدخل، وجدنا فيها خارطة الإدريسيّ، ومجسّمات للنواعير، ثم اتجهنا بعد ذلك نحو الطابقين الثاني والثالث، مررنا في غرف كثيرة، فيها مجسمات لقصر الحمراء، ولآثار قرطبة من أيام العرب في الأندلس، متشابكة بمجسمات لأشخاص وتفاصيل دقيقة عن تلك الأيام بمنتهى الدقة والإتقان.

كما لاحظنا وجود مقتنيات من السّجّاد القديم، عدّة سجّادات منها مُعلّقة على الجدران، وعلى مقربة منها أقمشة وحرير مقصب، تُذكر بإدخال العرب لحرف كثيرة لم تكن معروفة في الأندلس من قبل، منها حياكة السجاد اليدوي والأقمشة القطنية.

ولفت نظري أيضًا وجود آلات موسيقية معروضة في خزائن زجاجية خاصة، بينها آلة عود قديمة وربابة أندلسية مزخرفة، وقد استمتعت في غرفة الآلات الموسيقية بسماع موشحات أندلسية، تبثّها سماعات خاصة متوفرة للزوار، منها موشح «يا ليل الصب متى غدُه/ أقيام الساعة موعدهُ؟».

بعد نحو ساعتين غادرت مع غونزالو متحف «القلعة الحرّة»... عبّر عن إعجابه بالمتحف بنتف من الكلمات قالها باللغة الإنجليزية، وفي الحال اقترحت عليه أن نُسمع رأينا بالمتاحف الثلاثة للسيدة سلمى، وهكذا اتجهنا معًا للقاء بها في مكتبها في متحف «البيت الأندلسي».

عبرنا لها عن إعجابنا بالمتاحف الثلاثة، رددنا على مسمعها كلمات مفعمة بالفخر بما حققته من نجاحات متميزة، نظرت لنا بعينيها المشرقتين، وبدت في ذروة سعادتها، ثم تحدثت عن ذكرياتها في فلسطين مدفونة عميقًا داخلها، لها أثرها البليغ على مسارات حياتها في دروب الشتات.

31 كانون الثاني2019

الفصل الثالث

أمكنة لا تنسى

أيامٌ في حيفا

حيفا مسقط رأسي، رحلت عنها قسراً يوم احتلالها، لكنها بقيت معي منقوشة في الذاكرة، أسترجعها دومـًا عبر أحلامي من خبايا ذلك الزمن البعيد... أسارع دومـًا إلى قلمي لإعادة تشكيل مفاتن بحرها وكرملها وعلياء عرشها، وحتى وجوه أهلها، بما فيها من جاذبية وعذوبة، وتعود لي مع دغدغات مشاهدها كلّ ما كان لي في طفولتي الباكرة.

سجلت صلتي بحيفا في كتاب لي صدر مؤخرا عن دار الفارابي ببيروت بعنوانٍ يجمع ما بين مدينتي وقريتي: «حيفا... بُرقة البحث عن الجذور» اتسعت فيه حيفا بمساحة واسعة شاسعة مليئة بحاراتها وبيوتها وشوارعها وأزقتها ومحلاتها وأوراق أغصان أشجارها الصنوبرية... شكلتها في كتابي بمشاهد لها من أربعينيات القرن الماضي، بربطٍ وتتابع على اتساع امتداداتها المكانية بين البحر وأعالي الكرمل.

عبرتُ في كتابي عن تواصلي الدائم مع حيفا، وضعت فيه كثيراً من ذاتي... ذيلته بحواشي مشاهد كثيرة منها من زمن مضى، ورصعته بذكريات قديمة لا تزال في خاطري مؤثرة وبليغة الأثر، تنبعث من أعماق بواكير أيامي فيها قبل احتلالها وتجمُع الأيدي والنصال عليها.

كانت بي رغبة شديدة لإيصال كتابي إلى حيفا، تمكنت بجهودي الذاتية من إيصال خمس نسخ فقط، ومن ثم تمكنتُ بفضل صديقي

الناشر المعروف صالح عباسي صاحب ومدير مكتبة كل شيء من إيصال عدد كبير من النسخ ضمن رزم كتب عربية كثيرة يُدخلها تباعـًا إلى حيفا.

ابتهجـتُ عنـدما تلقيـت مخـابرة هاتفيـة مـن الصـديق صـالح عباسـي يُعلمني بها بأن كتابي قد وصل حيفا، واقترح عليّ في حديثه معي أن نعمـل سـوية علـى إشـهار الكتـاب في أمسـية خاصـة... وافقـت علـى اقتراحـه في الحـال لأنني كنـت أحلـم في إشـهار كتـابي في مسقط رأسي، ومـن حسـن حظي أن صديقي الدكتور جوني منصور اقترح عليَّ إقامة مثل هذه الأمسية أيضا، وجدت في اقتراحهما أجمل دعوة أتلقاها في حياتي.

ولهذا توجبَ الذهاب إلى حيفا لإشهار الكتـاب، اتجهنـا زوجتـي وأنـا في عصر ذات يوم من أواخر أيام آب الماضي إلى زيارة الوطن، زرنا بداية إكسال وقلنسوة واستقبلنا استقبالاً طيبـًا مـن الأهـل، ومـن ثـم حطـت بنـا الرحال في حيفا، وصلناها برفقة الصديق جوني منصور، ابتهجـت زوجتـي لأنّها لـم تزرها من قبـل، ولهـذا اهـتم مضـيفنا بتعريفهـا علـى حيفـا، عرفهـا على بيت أهلي في شارع الناصرة ومدرستي في شارع البرج، وعرفهـا علـى سـاحة الحنـاطير ووادي الصـليب وبقيـة أجـزاء البلـدة التحتـا بكـل تفاصـيلها... تجولنـا طـويلاً في السـيارة عـبر الشـوارع، واجتزنـا وادي النسـناس والألمانيـة والحليصـه والكرمـل وبعـض أجـزاء حيفـا الأخـرى. بعدها التقينا مع الشاعرة ليليان بشارة زوجة جوني، كان اللقـاء طيبـًا بكـل المقاييس تناولنـا العشـاء معـا في مطعـم جميـل عنـد حافـة البحـر، واصـلنا الحـديث عن حيفا أثنـاء تناولنـا الطعـام، وكنـت أنظـر بـين الحـين والحـين

للكرمل المعلق بطرف الأفق وهو يُلهبه الشفق، وأتأمل البحر الممتد أمامنا على مدى النظر، وأتابع بسعادة فائقة أمواجه، موجة إثر أخرى، ومع الوقت بدأ الليل يُرخي غلائله حولنا، وعندما قارب على الانتصاف عدت مع زوجتي إلى إكسال قرب الناصرة... غادرنا حيفا على أمل العودة لها ثانية بعد عدة أيام لإشهار كتابي فيها.

من دواعي اعتزازي أنّ الدعوة التي وجهت لحضور أمسية إشهار كتابي قد وجهتها ثلاث جهات فلسطينية بارزة هي: المجلس المّلي الأرثوذكسي ونادي حيفا الثقافي ومكتبة كلّ شيء، وإني من منطلق ما يدعوني إليه واجبي الوطني، لا أتردّد في أن أقول بكل موضوعية، وبعيداً عن المبالغة، أن تصدر المجلس المّلي الأرثوذكسي للجهات الداعية قد أسعدني، نظراً إلى مكانته المتميزة التي اكتسبها في تاريخ حيفا، في مجال تعزيز التآخي بين أبناء الوطن الواحد، بغض النظر عن اختلاف المنبت والمعتقد، ويكفي أن أذكر أنّ الشاعر الفلسطيني الكبير عبد الكريم الكرمي «أبو سلمى» قد تبوأ فيما مضى مركز سكرتير النادي الأرثوذكسي، أحد أهم الأندية في حيفا، واكتسب النادي نتيجة ذلك دلالات كثيرة ساهمت في ترسيخ الهوية والشخصية الوطنية للمجتمع الفلسطيني.

في اليوم المحدد لإشهار كتابي، عدت ثانية إلى حيفا مع زوجتي وأقرباء لي من إكسال من آل شلبي وآل دراوشة: عمر وإدريس وعبد السلام وحسناء ونديم ورنا والدكتور أمير وعمر، التقينا مع جمهرة من

الحضور من ضمنهم مجموعة من أبناء بُرقة الحيفاويين، وتم إشهار الكتاب في إحدى قاعات الكلية العربية الأرثوذكسية في حيفا.

ومن واجبي أن لا أخفي سعادتي بالذين تحدثوا في حفل إشهار كتابي، أعتز بهم، وأشيد بمساهماتهم القيمة، وأود أن أتوجه بالشكر إلى كلّ واحد باسمه: الأستاذ والشاعر الكبير حنّا أبو حنّا، وابن قريتي بُرقة الدكتور سهيل أسعد، والفنان عبد عابدي، والأستاذ والروائي جريس طنوس، والدكتور جوني منصور، وابنة عمتي حسناء دراوشة.

ومن أفضال هذه الأمسية أنّها هيأت لي فرصة اللقاء لأول مرة في حياتي مع ثلّة من أهل مسقط رأسي حيفا، ومن أبناء قريتي بُرقة الحيفاويين، ومكنتني من كسب مزيد من الأصدقاء أخص بالذكر منهم، الشاعر حنّا أبو حنا والدكتور سهيل أسعد، والمحامي فؤاد نقارة، والشاعرة سعاد قرمان، والشاعرة آمال رضوان والكاتبة روضة غنايم، والسيدة منى أسعد، والسيدة كريمة معلم، وحفيدة عمتي شهيرة شلبي (التي رأيتها أثناء الأمسية لأول مرة في حياتي)، وإلياس أسعد ضاهر، وحنا نصر الله، والفنان شحادة ديب، وزميل طفولتي في مدرسة البرج الحيفاوية راشد الماضي الذي لا يزال يعيش ويعمل في حي وادي النسناس في حيفا، وقد التقيت به أثناء الأمسية بعد 65 عاما من الفراق، وسط مشاعر مختلطة امتزجت فيها الدموع والذكريات.

ويبقى عليَّ أن أشيد باعتزازٍ بالجهد الذي بذلته الشاعرة آمال رضوان في إعداد تقرير طويل عن الأمسية على امتداد إحدى عشرة صفحة، نشرته

مع مجموعة من الصور في عدد كبير من المواقع الفلسطينية والأردنية وفي جريدة القدس، كما أشيد بالمبادرة الجميلة التي قامت بها الكاتبة روضة غنايم في اليوم التالي للأمسية ومفادها تصوير كتابي بين أشجار بستان الخياط من معالم حيفا الجميلة الذي كنت أزوره في أيام طفولتي الباكرة، وأرفقت تلك الصورة بملخص تعريفي للبستان اقتبسته من كتابي، في إطار تقرير موجز بثّته عبر مواقع التواصل الاجتماعي.

وهنا لا بدّ لي من الإقرار بأنّني لم أكرم في حياتي كما كُرمت في تلك الأمسية، ما سمعته من مديح لكتابي يمدني بزاد مشجع على مواصلة البحث عن الجذور، في أكثر فروعها امتداداً في أرض الآباء والأجداد الغالية، كوسيلة من وسائل التعرف على الذات والآخر، وحفظ ما تبقى من الذاكرة الجمعية.

ولا بدّ لي من الإقرار أيضًا أنّ تلك الأمسية، ستبقى بكل تفاصيلها بملء السعادة ماثلة أمامي، ظاهرة للعيان على مرّ الأيام... ذكرياتها لن تمحوها الأيام.

15 أيلول2013

أيامٌ في كوبا

توجهت في يوم شتوي قارس إلى مطار «بيير ترودو» الواقع في مدينة مونتريال الكندية، وسرعان ما أتممت كامل الإجراءات اللازمة للسفر، ثم صعدت إلى الطائرة المتجهة إلى كوبا، وبعد نحو أربع ساعات حلقت الطائرة فوق مدينة هافانا، نظرت من النافذة فوجدتها متشحة بغلالة من ظلام الليل، تتشابك أطرافها بخيوط من الأضواء الخافتة.

وفيما كانت تتسع دائرة تخيلاتي وتقربني من مشاهد أحداث كوبا التاريخية، أعلن قائد الطائرة عن بدء الهبوط، وما لبث أن حطت الطائرة في مطار «خوسي مارتي» الدولي، ورنّ في أذني صرير عجلاتها عندما لامست أرض المطار... بعد فترة قصيرة أتممت كلّ إجراءات الدخول... تناولت أمتعتي ثم اتجهت نحو باب الخروج، وسرعان ما أوقفت سيارة أجرة، أقلتني إلى فندق «ميليا كوهيبا» الواقع في حي فيدادو أحد أحياء هافانا الحديثة.

ما أن طلع صباح اليوم التالي، حتى أسرعت الخطى نحو الشرفة الملحقة بغرفتي، اجتاحني إحساس دافئ بالراحة، وأنا أجول ببصري في فضاءات هافانا الواسعة الواقعة على مقربة من نقطة التقاء خليج المكسيك بالبحر الكاريبي، رأيت عن بعد نهر الميندار يس الذي يخترق المدينة من الجنوب إلى الشمال، واستمتعت بمنظر تضاريسها ممزوجة

بزرقة البحر مع تلال مرتفعة تكسوها سلسلة متصلة من الغابات بمختلف ألوانها الزاهية، منها مرتفعات تلال «كابانا وايل مورو» ومرتفعات أخرى تقع عليها جامعة هافانا وقلعة الأمير، تمتد صعودا دون توقف أو انقطاع إلى جهتي الغرب والشرق.

بعد قليل تصفحت بعض المنشورات والخرائط السياحية، وفي الحال غادرت غرفتي، ثم انطلقت بسيارة أجرة نحو ساحة الثورة، التي اخترتها كأول مكان للتعرف على هافانا، لأنها تندرج ضمن أشهر المعالم الكوبية الحالية، تذكر بثوار من الصعب أن تزول صورهم من الذاكرة.

اجتازت السيارة عدة شوارع متقاطعة، ثم انعطفت إلى شارع جانبي، وسرعان ما وصلت الساحة، وبدأت التجوال فيها على اتساعها، استمر بصري بالتنقل في كلّ أجزائها، استمتعت بمنظر الساحة العام، والبنايات التي حولها، خاصة بناية وزارة الداخلية المزينة بصورة ضخمة من قطع الفولاذ للقائد الأسطوري تشي غيفارا، محفورة بخطوط نافرة متشابكة على واجهتها الأمامية، وكلمات تحتها باللغة الإسبانية تعني باللغة العربية «دوما نحو النصر».

توقفت بعض الوقت أمام صورة الثائر الكبير بطل معارك سانتا كلارا التي حققت النصر للثورة، وجعلت منه شخصية قيادية ملهمة ومقدرة في الثورة الكوبية، وظهر بعد النصر كقائد عسكري متميز ورجل دولة، له شهرة عالمية لا تضاهى، وأصبحت مسيرته النضالية رمزاً لكل أحرار

العالم في كلّ مكان، تؤكد على أن بطولاته وتضحياته، طالما كانت مبعث فخر واعتزاز لهم.

بعدها اتجهت نحو بناية أخرى، هي بناية وزارة الاتصالات الشهيرة المزينة بصورة ضخمة من قطع الفولاذ للقائد كاميليو سينفيغوس، وهو شخصية رئيسية في الثورة الكوبية، إلى جانب فيدل كاسترو وتشي غيفارا وخوان ألميدا وراؤول كاسترو، لقي مصرعه وهو في السابعة والعشرين من عمره، في حادث سقوط طائرته في المحيط الأطلسي، بعد انتصار الثورة بعدة شهور، لم يتم العثور على جثته، وأصبح أسطورة ثورية، تذكرُه كوبا يوم رحيله في كلّ عام برمي الأزهار على مياه المحيط تكريماً له، كما وُضعت صورته على القطع النقدية الكوبية فئة 40 بيزو، وكرمه صديقه تشي غيفارا بأن سمى أحد أبنائه كاميليو تيمناً به.

بعدها اتجهت نحو الجهة الجنوبية من الساحة لمشاهدة برج الثورة، وقفت أمامه وأمعنت النظر فيه فوجدته من الرخام الأبيض يقع في أعلى نقطة في الساحة، وهو من الضخامة بمكان يبلغ طوله ما يقرب من مائة وأربعين متراً، يزدان بتشكيلات فنية تذكر بتفاصيل معلومات متشعبة عن مآثر الثورة الكوبية، التي أكسبتها منظوراً ثورياً خاصاً بها يميزها، عن غيرها من الثورات.

وفيما كنت أجمع شتات أفكاري التي كانت تتقافز هنا وهناك، لاحظت وجود تمثال ضخم من الرخام الأبيض على مقربة من البرج طوله ثمانية عشر متراً، تلامسه براعم أشجار نخيل استوائية باسقة مزروعة

حوله، اتجهت نحوه فوجدته للشاعر والكاتب الكوبي خوسيه مارتيه، الذي أسس للثورة الكوبية بأفكاره قبل وفاته عام 1895، واعتبره كاسترو ملهمه، أخذ أفكاره ونفذها، وقد كرمته الثورة بإطلاق اسمه على مطار هافانا الدولي، وأقامت له عدة تماثيل في ساحة الثورة ومركز المدينة ومتحف الثورة.

شعرت بارتياح للوقوف بجانب التمثال، في وقت كان فيه ظل البرج يزحف نحوه فيغطيه، وقد مرّ بي وأحاطني من جميع الجهات... تصفحت في تلك اللحظة النشرات السياحية التي أحملها، ومنها تعرفت على المكان الذي كان يخطب منه كاسترو، على بعد عدة أمتار من تمثال ملهمه، كان يقف بزيه العسكري الأخضر ولحيته الأسطورية، ويلقي خطبه المطولة التي كانت تدوم عدة ساعات، وقد دخلت موسوعة «غينيس» للأرقام القياسية، وظهر بها كأشهر الخطباء في العالم... كان يقف الشعب أمامه بطوابير طويلة أثناء إلقائه خطبه النارية، يصل عددهم إلى أكثر من مليون مواطن يصطفون أمامه بصفوف متماوجة في ساحة الثورة، تثيرهم خطبه ويرددون اسمه بأصوات عالية.

بقيت بعض الوقت على مقربة من تمثال خوسيه مارتيه، سرحت صامتاً أتأمل أطياف أفكار كثيرة مرت بخاطري، حاولت فيها إيقاظ ذكرى انطونيو الكولومبي، الذي تنحدر أصوله من مدينة بيت لحم الفلسطينية، وقد انضم للثورة الكوبية في بداية عهدها... تعرف مبكراً على تشي غيفارا وفيدل كاسترو في المكسيك، وكان ضمن مجموعة صغيرة

من اثنين وثمانين مناضلاً ركبوا البحر على متن المركب «غرانم» وكانت وجهتهم كوبا، وصلوها في نهاية عام 1956، وعلى الفور أشعلوا شرارة الثورة في سلسلة جبال سييرا مايسترا، وتلظى كلّ شيء حولهم، تخطوا العقبات والشدائد، وحققوا النصر بعد حرب دامت نحو ثلاث سنوات، وبدأ عهد جديد في كوبا.

غادرت فيما بعد الساحة، واتجهت إلى متحف الثورة الواقع على مقربة من الميناء في هافانا القديمة، للتعرف على مقتنياته التاريخية، المتعلقة بمرحلة مهمة من تاريخ كوبا، التي تجسد مختلف الأحداث التي ظهرت في تعاقب أيام الثورة، منذ تشكيل نواتها الأولى وحتى تحقيق النصر.

وصلت شارع بلجيكا حيث يوجد المتحف، وبينما كنت أجول بنظري في جنباته، وجدته من الضخامة بمكان، تزدان جدرانه من الخارج بلمسات فنية معمارية، وتعلوه قبة ضخمة تحمل عبق التاريخ من أزمنة قديمة، تشير النشرات السياحية إليه كقصر كان يسكنه رؤساء كوبا، وآخر من سكنه منهم باتيستا الذي تخلصت من دكتاتوريته الثورة، ثم تحول إلى متحف في عام 1974، وتم فتح أبوابه إلى عامة الشعب.

بعدها وقفت في طابور طويل مع عدد كبير من السياح، ثم دخلت باحة واسعة يتفرع منها مداخل لقاعات كثيرة منتشرة في عدة أدوار، مليئة بمقتنيات ولوحات تشكيلية ومجسمات تعبر عن الوفاء والتقدير لأبطال الثورة الذين غيروا بنضالهم مجرى التاريخ في كوبا، وأول ما لاحظته قبل

دخول القاعات مجسمٌ ضخمٌ للشاعر والكاتب خوسيه مارتيه، الذي ألهمت أفكاره كاسترو للقيام بالثورة.

بعد أن تعرفت على مقتنيات المتحف، اتجهت إلى جهته الخلفية حيث يوجد المركب التاريخي «غرانما» شعرت بسكون عميق حوله، ولاحظت أشعة الشمس وهي تخترق نوافذه في أطياف متلألئة... جلت بنظري على اتساعه، وتسمرت عيناي على أجزائه وتراكيبه المختلفة... تمتعت به غاية التمتع، وتذكرت دوره الكبير في الإعداد للثورة، وتأكد لي أن وجوده من حيث الشكل والمضمون في المتحف، يحيي ذكراه في نفوس أبناء كوبا في الزمن الراهن والآتي، يُذكرهم برحلة تاريخية عاد فيها فيدل كاسترو وتشي غيفارا ورفاقهما من مرفأ «توكسبان» المكسيكي إلى سواحل جنوب كوبا لإشعال الثورة، ركبوا على متن قارب قديم، كان عددهم أكبر كثيراً من قدرته... أخذ يترنح كالريشة في مهب الريح، تتقاذفه الأمواج على اتساع البحر، وهو على وشك الغرق.

غادرت المتحف بعد فترة طويلة من الوقت، ثم اتجهت بعد ذلك نحو حصن «دي سان كارلوس دي لا كابانا» الواقع فوق تلة «لا كابانا» على مقربة من خليج هافانا، في مكان يطل على البحر والمدينة من كلّ أطرافها، اهتممت بزيارته لأنه تحول بعد الثورة إلى مقر للقائد تشي غيفارا، فيه عدة متاحف في الوقت الراهن، اهمها متحف «كوميندانيا ديل تشي» الذي يضم مكتب تشي غيفارا وبعض مقتنياته الخاصة، تجولت فيه بعض الوقت، واستمتعت بما فيه من مقتنيات نادرة للقائد الكبير.

بعدها مضيت نحو هافانا القديمة «مادري هافانا» التي وضعتها اليونيسكو على قائمة مواقع التراث العالمي، وسرعان ما بدأت التجوال فيها مشياً على الأقدام في شوارع وأزقة متعرجة وساحات مرصوفة بالحجارة، استمر بصري بالتنقل بين أجزائها المتشابكة، وتفاجأت بوجود أبنية كثيرة، تصطف على جنبات الشوارع، مزينة بطابع أندلسي بعناصرها الفنية والجمالية، من وحي غرناطة وقرطبة، تشكل أرضية لمكونات تاريخية قديمة من أيام احتلال إسبانيا لكوبا، وعلى مقربة من تلك المباني، انحرفت يميناً في شارع جانبي اسمه «أوفيسيو» يقع بين شارعي «أوبيسيو» و«أوبيرا» في وسط المدينة القديمة، ووجدت في بدايته بناية رقم 16 على الطراز الأندلسي، على واجهتها الأمامية كلمات منقوشة بحروف عربية نافرة، تشير إلى وجود مركز يُسمى «المركز الثقافي الكوبي العربي».

أحسست بما يكفي من الارتياح لوجود المركز... دخلته في الحال ووجدت تركيبته الداخلية تحاكي البيوت الأندلسية، وأجزاء من جدرانه مغطاة بزخرفة «الزليج» بأشكال بالغة الدقة والإتقان، استوقفني وجود مكتبة تحتوي على كتب قديمة، التقيت فيها بشاب عربي قدم نفسه باسم والي الرياني... عرفني على المركز لعدم وجود مديره في ذلك الوقت، وتبدى لي من حديثه أنه تأسس بمبادرة من الحكومة الكوبية في عام 1983، لجمع شمل الجالية العربية والكوبيين من أصول عربية، ويقدر

عددهم بما يقرب من خمسين ألف كوبي، تنحدر أصولهم من فلسطين وسوريا ولبنان.

لاحقاً واصلت التجوال في المدينة القديمة، تعرفت على جامعة هافانا الواقعة في حي فيدادو، وقد أسست عام 1728 وتعتبر واحدة من أقدم جامعات أمريكا اللاتينية، بعدها تعرفت على فندق إشبيلية بأعمدته وأقواسه الأندلسية، كما تعرفت أيضًا على فندق ليبري التاريخي الذي اتخذه كاسترو مقراً لحكومته غداة انتصار الثورة، ويعتبر من المآثر التراثية في هافانا، لقدمه ولأنه يفيض بمعلومات ثرية عن الثورة الكوبية.

انتقلت بعد ذلك إلى زقاق «باسيو ديل برادو» الأكثر جمالاً في العاصمة هافانا يقع على مقربة من جزئها القديم، يشتهر بوجود أشجار باسقة مغروسة على جانبيه، إضافة إلى مقاعد رخامية مثبتة على أرصفته، ومنحوتات أسود برونزية، وأصص زهور تتدلى من شرفات بيوت قديمة أشبه بالقصور، تأبى الذاكرة الجمعية الكوبية التخلي عنها... جلست على أحد الأعمدة الرخامية، واستمر بصري بالتنقل بين أجزاء الزقاق المتشابكة، التي شكلت في الزمن القديم أهم مكان لأثرياء هافانا.

تعرفت في نفس الزقاق على مسرح هافانا الكبير «قراند تياترو دي لا هافانا». واحدٌ من أكبر المسارح في العالم، شيد قبل مائتي سنة بلمسات معمارية باروكية، وهو في الزمن الراهن المقرّ الدائم لفرقة الباليه الوطنية الكوبية، التي تنافس كبرى فرق الباليه العالمية، وتعتبر «اليسيا ألونزو»

التي تولت إدارة الفرقة لسنوات طويلة، من أبرز نجوم رقص الباليه في العالم.

بعدها غادرت المكان، ركبت سيارة أجرة من جديد، وسرعان ما مضى السائق في شوارع رئيسية، تجاوز عدة شوارع منها، إلى أن بلغ «باركي سنترال» عندها ترجلت من السيارة ووجدت نفسي وجهاً لوجه مع مبنى «الكابيتوليو» بقبته الضخمة الشبيهة بطرازها المعماري بالكابيتول الأمريكية الشهيرة، هالني ضخامة قبته التي تُرى من كلّ أجزاء هافانا، وتميزه بوجود نتوءات زخرفية متشابكة على واجهته الأمامية بأشكال جمالية متناسقة، وقد استخدم في الماضي كمقر للحكومة قبل الثورة، ويستخدم في الوقت الراهن مقرًّا للأكاديمية العلمية الكوبية.

بعدها مشيت في الاتجاه المقابل لمبنى «الكابيتوليو» حيث يوجد مقهى «فلوروديته» الشهير في شارع «أوبيسبو» رقم557، الذي تشير له النشرات السياحية كواحد من معالم هافانا التاريخية، تم افتتاحه في عام 1817... دخلته وانشغلت بالنظر بكل جوانبه، وجدته يفيض بنمط خاص من التصميمات الداخلية، المطعمة بتشكيلات متميزة من حيث المضمون الجمالي والحسّ الفني، جلست في زاوية على مقربة من مجموعة سياح، أجلت البصر بينهم، وبينما كنت أرتشف القهوة، رأيت تمثالاً في إحدى الزوايا، ظلت عيناي معلقتين به فترة من الوقت، وبعد لحظات اتجهت نحوه فوجدته للأديب الأمريكي الشهير إرنست همنغواي، أقامته الحكومة الكوبية تكريما له لأنه كان كثير التردد على

المقهى، خلال الفترة التي استقر به المقام في كوبا لعشرين عاماً، وأيد الثورة الكوبية، وتقرب من فيديل كاسترو، حتى إنّهما قاما معاً بتوزيع الجوائز على الفائزين في مسابقة لصيد أسماك المارلين التي مارس صيدها وأوحت له برواية «العجوز والبحر»، وقد كرمته الحكومة الكوبية بإطلاق اسمه على أماكن كثيرة منها ميناء في هافانا، كما حولت بيته إلى متحف، نفس البيت الذي أوصى أن يؤول إلى الشعب الكوبي بعد رحيله.

في سياق هذه الأجواء هيأت نفسي لزيارة بيت همنجواي، وبعد فترة من الوقت اتجهت بسيارة أجرة نحو قرية «فينسا فيجيا» القريبة من هافانا حيث يوجد البيت... وصلت العنوان المطلوب، ثم ترجلت من السيارة، واتجهت مشياً على الأقدام بُخطى بطيئة إلى ربوة عالية على مقربة من البحر الكاريبي، حيث يوجد البيت وسط مزرعة مزدانة بأشجار استوائية، دخلته وتجولت فيه على اتساعه، وجدته مليئاً بأثاث قديم، ومجموعة كبيرة من الكتب مرصوصة على رفوف مكتبة كبيرة، ورؤوس حيوانات معلقة على الجدران اصطادها الأديب همنجواي الذي عرف بعشقه لصيد الحيوانات البرية والأسماك.

وبينما كنت أنظر بإمعان لمقتنيات المتحف، علمت من مرشد سياحي أن همنجواي مارس الكتابة في بيته، وكتب فيه روايته الشهيرة «العجوز والبحر» عام 1952، بطلها ساتياغو صياد كوبي عجوز متقدم في السن، تعود على صيد السمك في خليج «غولد ستريم» وقد حاز

همنجواي بفضلها على جائزة نوبل للآداب عام 1954، وعلى جائزة بوليتزر الأمريكية، لقوة أسلوبه في فنّ الرواية الحديثة.

بعد ذلك عدت أدراجي إلى هافانا، ومن ثم مضيت إلى شارع «الماليكون» كورنيش الواجهة البحرية، مشيت فيه في وقت الغروب، وجدت نفسي أمام أمواج تتلاطم على حافة الشاطِئ القريب وتعانق بعضها بعضا، تحت أشعة الشمس المتكسرة التي قاربت على الرحيل... واصلت المشي على الكورنيش الطويل، مضى الوقت بطيئا مع بدء إطلالة الليل بإشارات جميلة تليق بهافانا الساحرة، وفي لحظة التقيت بمجموعة كبيرة من الشباب يعزفون ويغنون ويرقصون، رقصات ابتدعتها كوبا وعمت العالم كله كرقصات السلسة والتشاتشا والرمبا، استمتعت بغنائهم ورقصهم بإيقاعات موسيقية ساحرة، ولاحظت وجوههم تشع بالبهجة والسرور، كما شعرت بصفو حياتهم وقدرتهم على العيش في تحد دائم للحصار، وقوى الظلم والطغيان.

بعد منتصف الليل بقليل انتهت أمسيتهم الجميلة، وانفض السامر بمغادرة الجميع إلى بيوتهم، وفي نفس الوقت انطلقت من فوري بسيارة أجرة نحو فندقي، وسرعان ما وصلته، أسلمت نفسي لنوم عميق، وفي صباح اليوم التالي، جهزت نفسي لزيارة شواطئ مدينة «فراديرو» السياحية التي تبعد عن هافانا نحو ساعتين بالسيارة، وبعد فترة قصيرة من الوقت غادرت الفندق، انطلقت بسيارة أجرة نحو الجهة الجنوبية من هافانا، اجتاز السائق بعض أجزاء العاصمة المأهولة، ثم سلك الطريق

السريع على مقربة من المحيط، واستمر بصري بالتنقل بين أجزاء الشاطئ الواسع على امتداد الطريق.

استمتعت بوقتي وأنا أشاهد سلسلة متصلة من المنتجعات السياحية الضخمة، ممزوجة بأشجار استوائية باسقة تتراقص أغصانها على امتداد «فراديرو» طولاً وعرضاً، جعلت منها منطقة ذات جذب سياحي، ومكاناً مشهوراً في العالم، يزداد زوارها من السياح عاماً بعد آخر، للتمتع بشواطئها المغمورة بالشمس.

وخلاصة القول، استمتعت بزيارة كوبا، قضيت فيها نحو عشرة أيام، ثم غادرتها إلى مدينة مونتريال الكندية، وصلتها مع اشتداد حدة البرد في فصل الشتاء التي يحولها بمقاييس أزلية ثابتة إلى مدينة أخرى، بحلة جديدة غير التي كانت عليها في فصول أخرى، تظهر فيها ملفعة بطبقات متراصة من الغيوم تغطي السماء، وتخفي الشمس لأيام طويلة، ومغطاة بأكوام سميكة من الثلوج يتوارى تحتها كلّ شيء.

في مثل هذه الأجواء التي لا تطاق، زادت رغبتي بالعودة ثانية إلى كوبا الدافئة.

7 كانون الثاني 2019

أيامٌ في الناصرة

فارقت أحبتي في الناصرة، ولم أعد بالقرب منهم أستظل بألفتهم الحميمة، وهأنذا بعد مضي أيام على فراقهم أشعر أنني ما زلت بينهم، أستشعرهم بالقرب مني، ويتناهى إلى سمعي صدى أصواتهم، أكتب لهم الآن عن بعدٍ في غمرة عاطفة وذكرى، لأشكرهم على الوقت الذي عشته معهم، وعلى الكلام الجميل المجبول بأريحيتهم الدائمة الذي سمعته منهم.

كان لقائي بهم لإشهار الجزء الثاني من كتابي «حيفا... بُرقة البحث عن الجذور» تكريماً لي لم أنله من قبل، لم أتمكن في حفل الإشهار من السيطرة على عواطفي أمام حشد كبير توافد من أهل بلدي لقاعة الحفل، نظرت إليهم بفيض انفعالات عارمة، وشعرت أنني منهم ولم أنفصل عنهم طيلة عمري.

نعم، هذا هو الانطباع الذي خرجت به في تلك اللحظة. واستحوذ عليّ هذا الانطباع، وأنا أسمع مداخلات ثلة من المتحدثين بكلماتهم المؤثرة، كان أول من تحدث منهم الشاعر مفلح طبعوني، ثم تبعه الدكتور محمود يزبك الذي أشرف على عرافة الحفل، وبذل جهداً كبيراً في تنظيم الحفل، كان طيلة أيام طويلة مضطرم النشاط يضفي على كلّ ما يقوم به فيضاً من

الحيوية، وبعده تحدث على التوالي: الدكتور جوني منصور، الدكتور سهيل أسعد، والأستاذ رائد نصر الله.

كلماتهم لن تُمحى ذكراها من خاطري ولن تغشاها الظلال، أكدوا بتركيبات نصية متشابكة، أنّ البحث عن الجذور يُساعد على تشكيل جوانب مهمة من الذاكرة الجمعية الفلسطينية الغائرة في عمق الزمان والمكان؛ كالشجرة الظليلة في تشكيل الهوية والانتساب إلى الوطن.

ويُساعد أيضاً على التعرف على الذات والآخر، وتشاء الصدف أن ألتقي برائد نصر الله لأول مرة في حياتي قبل دقائق من إلقاء كلمته، مع أنّ عائلته تنحدر من جذور قريتي بُرقة. ووالده جورج نصر الله وعمه فرنسيس نصر الله، اللذان استقرا مبكراً في الناصرة، ارتبطا مع عمتي نجية في إكسال بعلاقة متميزة، فقد «خاوتهما» لأنهما مثلها من بُرقة تترابط معهما بذكرى مسقط الرأس، وقد عاملاها كأخوين لها حتى وافاها الأجل المحتوم، وهذه العلاقة لا تزال مستمرة حتى الآن، يتسع مداها، وتمتد جذورها مع الأبناء والأحفاد.

وهكذا تعرفت عليه بفضل البحث عن الجذور، كما تعرفت قبل عامين لأول مرة على الدكتور سهيل أسعد الذي تنحدر جذوره من بُرقة أيضا، وتعرفت على مجموعة كبيرة من الرجال والنساء تمتد جذورهم

على اتساع المكان في حيفا وبُرقة، تجمعني بهم منابت الجذور وحب الوطن وكلّ ما يُذكر بالوطن.

زرتهم في بيوتهم ووضعت قائمة بأسمائهم في كتابي، يصعبُ عليّ ذكرهم كلهم في هذه العجالة، وأكتفي بذكر سهيل محمد سيف من شفا عمرو، غالب سيف من يانوح، رفيق عبد القادر مسعود من عرعرة، كمال كسابري من الناصرة، الدكتور مروان درويش من كفر ياسيف، ذيب لطف حسين من دير حنا،، بولس كسابري من حيفا،، وابن عم أمي أحمد عبد عودة من عبلين الذي التقيته لأول مرة في حياتي أثناء بحثي عن الجذور في الربيع الماضي.

سُعدت أيّما سعادة باللقاء بهم وبأقرباء كثر لهم أثناء حفل إشهار كتابي في الناصرة، أهديتهم نسخاً من كتابي، ورفعت أحاديثهم معي من آماد خيالاتي، لأحلق أبعد وأبعد في فضاءات بلادي، وأفتح أفاقاً واسعة للتأكيد على امتداد جذورهم المتشابكة، بكلّ ما تنطوي عليه من معانٍ كثيرة، أهمها هو معنى الانتماء للوطن، رغم الاحتلال وكل أنواع الظلم والاضطهاد والتشريد والمآسي والإحباطات.

وسَعدت أيضاً بالتعرف على الناصرة عاصمة الثقافة الفلسطينية، خلال الأيام التي سبقت إشهار الكتاب، بآفاق تلك الأيام المثقلة باللقاءات أتيح لي التعرف على مؤسسة الراحل الكبير توفيق زياد للثقافة

الوطنيـة والإبـداع، عرفنـي رئيسـها أديـب أبـو رحمـون علـى مقتنيـات المؤسسـة، ومنهـا مجلـدات أعـداد الاتحـاد القديمـة، ومؤلفـات كثيـرة، تتضمن أعمال الشاعر الكبير، امتد الحديث معه حول الحاضر الغائب توفيق زياد، في ظلال بريق كلماتٍ جميلةٍ عن شعره ونضاله، كقائد كبير من أبرز شعراء المقاومة، وأعقب ذلك زيارة لضريحه، قمت بها برفقة أديب أبو رحمون ورائد نصر الله، كما زرت معهما ضريح الشاعر الكبير عبد الرحيم محمود.

ولا أنسى الجولات التي قمت بها للتعرف على الناصرة برفقة الدكتور محمود يزبك وصديقه زياد أبو السعود الظاهر، تجولت معهما مشياً على الأقدام، سرنا في أزقة عتيقة مرصوفة بالحجارة، ينبعث منها هدير أزمنة طويلة، اتجهنا فيها صعوداً، وسرعان ما وصلنا كنيسة البشارة للاتين التي تعتبر واحدة من أهم الكنائس في العالم، ثم زرنا كنيسة البشارة للروم الأرثوذكس، وبعدها زرنا عين العذراء، ومدرسة المسكوبية، التي درس فيها ميخائيل نعيمة، وتحدث عنها في مذكراته «سبعون».

كررت التجوال سيراً على الأقدام في الناصرة برفقة رائد نصر الله، استمر بصري بالتنقل بين أجزاء تاريخية كثيرة، اتسع نطاق نظري في الامتداد نحو كلّ الجهات، حدثني عنها رائد في أمورٍ شتى، وعرفني على مرافق كثيرة، منها المسجد الأبيض، ومبنى خان الباشا، ومقام شهاب

الدين الأيوبي، وبناية آل الفاهوم التراثية، التي يرنُ صوت التاريخ فيها، التقيت في داخلها بالمحامي وليد الفاهوم، عرفني على تفاصيل جدرانها وأبوابها وأقواسها، وعلى لوحة فنية مرسومة على امتداد سقف أعلى علية فيها، ألوانها كأضواء مصابيح تترقرق في أعلى السقف.

بعد هذا التجوال في الناصرة، رافقت رائد بسيارته في رحلة عرفني بها على الجليل الأعلى، مضينا معا في يوم ممطر، كنت فيه أشم شذا رذاذ حبات المطر، كنت صامتًا بعض الوقت وخيالي يحلق في أجواء عالية حول أوضاع بلدي تراثًا وتاريخًا وراهنًا... وهج آمال لفحتني واتسعت حولي في المدى الممتد إلى ما لا يدركه البصر... وفي نهاية التجوال استمتعت أيّما استمتاع بزيارة الفنان المعروف أشرف برهوم في منزله في ترشيحا، وهو صديق ابني وليد، حدثني مطولاً عن بلدته المسكونة بكثير من الصور والمعاني الفنية الجميلة، أحاديثه عنها أيقظ في داخلي لحظات مسرة نادرة.

أحسست بما يكفي من الارتياح، لاكتشاف تفاصيل أجزاء أخرى من الناصرة، عرفني عليها الكاتب سميح غنادري، تلمستُ بها أطياف التاريخ في تلك اللحظات الخاطفة، وأسعدني كثيراً قضاء ساعات طوال مع الشاعر مفلح طبعوني، بدأ اللقاء به في مكتبه، عرفني على بعض أصدقائه، ومنهم الروائي والكاتب المعروف عودة بشارات، ثم تواصل اللقاء معه

في جلسة على شرفة مطعم «تشرين»... كانت الشمس مشرقة، والناصرة حولنا على امتداد المدى، حدثني في أمور شتى عن الحياة الثقافية في مدينته، وشعرت بانفعالات كثيرة توالت في نفسي الواحدة تلو الأخرى، وهو يحدثني بفيض من الحيوية عن مآثر عدد كبير من الشعراء والكتاب... بذكراهم تستضيء الحياة بأنوار أخرى.

هناك الكثير من الذكريات الجميلة التي حملتها لي الأيام القليلة التي عشتها في الناصرة، لا أستطيع حصرها على وجه الدقة بكلمات معدودة، إنها تتدفق على خاطري، فيخفق قلبي لها، ويكفيني القول إنها تدور كلّها حول صور حقيقية عن نبل صمود أهل بلدي في الداخل الفلسطيني وسط ظلمة لا تُطاق، وتعبر عن تجذرهم كأحجار الصوان في أرضنا الطيبة، وعن حفاظهم على لغتهم وهويتهم، وعلى عاداتهم العربية الأصيلة، وعن حفاظهم على أتلام أرضنا وأشجارنا وبيوتنا وأمواج بحرنا موجة موجة، وكل ما لنا بلا استثناء.

7 كانون الثاني 2019

أيامٌ في جبال الأوراس

احتفلت الجزائر خلال العام الحالي بخمسينية استقلالها، أحيت على امتداد أيام طويلة ذكرى مرور نصف قرن على انتصار الثورة واسترداد الحقوق الوطنية. إنها ذكرى أهم صفحة من صفحات التاريخ الجزائري، سطرها مليون ونصف المليون شهيد، ضحّوا بأرواحهم من أجل إعادة الاعتبار إلى الذات، وتحرير البلاد بعد احتلال دام 132 عاماً.

تتجلّى مظاهر الاحتفال بهذه المناسبة التي أحيتها الجزائر، بعقد اللقاءات والندوات والنشاطات الأدبية والثقافية، وإقامة الفعاليات الفنية في مجالاتها المختلفة، وكذلك دعوة الوفود الخارجية للاطلاع على الإنجازات التي تحققت بعد نيل الحرية والاستقلال.

أتيح لي زيارة الجزائر بمناسبة هذه الاحتفالات، توجهتُ ذات صباح ربيعي من شهر آذار 2013 إلى الجزائر برفقة صديقين عزيزين هما جعفر العقيلي وحسين نشوان.. استُقبلنا بحفاوة في مدن باتنة وخنشلة وقسنطينة، قضينا في هذه المدن سبعة أيام حفلت بلقاءات كثيرة، كان أولها لقاء مع طلبة وأساتذة كلية الآداب في جامعة الحاج لخضر في باتنة، أعقبه لقاءات أخرى نظمتها جمعية شروق الثقافية، مع صحفيّي ولاية باتنة وطلبة الإعلام والاتصال هناك، ولقاءات في ولاية خنشلة، تفرع عنها قراءات نثرية وشعرية وتقديم محاضرات حول المقروئية والقضايا

الإبداعيـة في الـدول العربيـة، وتوقيـع مجموعـات قصصـية وشـعرية.
تقـع مدينـة باتنـة في قلـب جبـال الأوراس، إنهـا عاصـمته ومهـد الثـورة الجزائرية، تحتفظ بذكرى خاصة للشهيد مصطفى بـن بلعيد أحد رمـوز الثورة، أقامت له تمثالاً كبيراً في وسـط سـاحة كبرى، يَظهر على قاعدتـه بحروف بارزة لقبه المعروف «أبو الثورة»، وهو فعلاً من الآباء التاريخيين للثورة، فقد أُسندت إليه بالإجماع رئاسـة اللقـاء التـاريخي لمجموعـة «ال 22»، الذي حسم الموقف لصالح تفجير الثورة المسلحة ضدّ الاسـتعمار الفرنسي، وعُـين على رأس منطقـة الأوراس، وكـان أحـد أعضـاء «لجنـة الستة»، وخـاض معـارك ضـارية ضـدّ القـوات الفرنسـية قبـل استشـهاده في العام 1956.

تقع مدينة خنشلة في منطقة الأوراس أيضـاً، وهـي تُعَدّ المعقـل الأول للثورة الجزائرية، انطلقت منها أول رصاصة ضدّ المحتل الفرنسي، وعلى مقربة منها يوجد نصب تـذكاري لانطـلاق الرصاصـة الأولـى، كُتب عليـه بحـروف بـارزة أسـماء الشـهداء والمجاهـدين مـن القـادة مفجـري ثـورة التحرير بالمنطقة التاريخية الأولى في الأوراس، على رأسهم الشهيد الرمز «عباس لغـرور» الـذي تحمـل اسـمه جامعـة في خنشـلة، وهـو مـن الرعيـل الأول الـذين سـاهموا في التحضـير للثـورة في منطقـة الأوراس، ويُشـهد لـه بخـوض معـارك ضـارية علـى رأس بعـض أفـواج جيـش التحريـر الـوطني ألحقت الهزيمة بالعدو، وذلك قبل استشهاده في العام 1957.

كانت اللقاءات بالمثقفين الجزائريّين في باتنة وخنشلة سارّة حقيقية بكل المقاييس، استمتعت من خلالهم بالتعرف على الشرق الجزائري، سعادة اللقاء بوجوههم الباسمة المتفتحة لا توصف، استمتعت بتفاصيل لقاءات كثيرة، أقيمت بطابع خاص وأخاذ.

كانت برامج اللقاءات حافلة بالأحاديث في جو من الخشوع، عن الثورة ومناقب الشهداء، يكررون أسماء شهدائهم باعتزاز، ويؤكدون أن ذكراهم لا تمحى ولا تغشاها الظلال. تحدثوا بإطناب عن مجموعة «الـ 22» التي خططت للثورة، وعن مكان انطلاق الشرارة الأولى للثورة، وعن محطات مهمة في تاريخ الشعب الجزائري، بدءاً من مجازر 8 أيار 1945، وتنكر فرنسا لوعودها، إلى التخطيط للثورة ثم اندلاعها واستمرارها طيلة سبع سنوات، وصولاً إلى هزيمة فرنسا ونيل الحرية والاستقلال.

تواصلت البرامج الثقافية بحلقات متتابعة، طالت وتشعبت مواضيعها، بعضها في إطار المعرض الثالث للكتاب بخنشلة الذي حمل شعار «القراءة منهاج الحياة»، حاملاً كل جديد في مجال الثقافة والمعرفة، وقد حضر حفل افتتاحه عدد كبير من الناشرين هناك، وتمّ فيه تكريم مرغريت كربونار، وهي سيدة في الثمانين من عمرها، معروفة للشعب الجزائري كلّه، لأنها زوجة صديق الثورة الجزائرية الفرنسي الراحل جان كربونار، قَدّمت للمعرض كتاب زوجها الموسوم «لننهض معًا من جديد» بنسخته

العربية، الذي يضم سيرته الذاتية وقصة نضاله إلى جانب الجزائريين في فترة الاستعمار وفي مجال البناء بعد الاستقلال.

أهدتني السيدة مرغريت نسخة من كتاب زوجها، كتبتْ كلمة إهداء معبّرة مفادها: «هذا الكتاب يثبت أننا معاً نستطيع أن ننهض.. أتمنى لفلسطين أن تنهض». كتبتها بالفرنسية وترجمتها لي مترجمة الكتاب السيدة سكينة بن صديق بدير.

سرعان ما وجدتُني أقلّب صفحات الكتاب صفحة تلو أخرى بشغف كبير، قرأته خلال فترة وجيزة، وهالني ما فيه من معلومات على جانب كبير من الأهمية، يلاحَظ منها عمق إحساس جان كربونار بشقاء البشر وعذاباتهم وطموحاتهم وسعادتهم المسروقة. فقد أحس عن قرب بعمق معاناة الجزائريين، وتضامنَ مع مناضلي جبهة التحرير الجزائرية، فكان يؤوي في بيته بعض المجاهدين، وكان يرافقهم ويسهّل لهم سبل النجاة والإفلات من قبضة المحتل، ولقي في سبيلهم ما لقي من مراقبة البوليس الفرنسي له واعتقاله ومحاكمته، وكانت قمة التحدي لديه متمثلة في تسمية أبنائه الأربعة بأسماء عربية: إبراهيم وسالم ومريم ونعيمة.

هذه المواقف النضالية، دفعت بعض أركان حكومة ديغول - ممن كانوا يعترفون بموضوعية أن حربهم ضد الثورة الجزائرية خاسرة - للاتصال بجان كربونار، وانتدابه ليكون حلقة وصل بين الحكومة الفرنسية وقيادة الثورة الجزائرية، وقد قام بزيارات سرية إلى تونس والجزائر، مهدت لاتفاقيات إيفيان وانتصار الثورة.

وبعد نيل الاستقلال، لم تنتهِ علاقة هذا المناضل بالجزائر المحررة، بل ساهم بفعالية في معركة البناء، فقام بإنشاء ورشات للنجارة تعنى بتقطيع أشجار الأوراس التي أحرقتها قوات الاحتلال الفرنسية بالنابالم، وبإنتاج الخشب اللازم للبناء منها، كما قام بإنشاء ورشات تشجير لزراعة أشجار جديدة بدلاً من الأشجار المحروقة طالت الشرق الجزائري كلّه، مثل أشجار الأرز والصنوبر الحلبي والكافور، إضافة إلى شجر الزيتون والتفاح واللوز والتين، وقد تلقى مساعدات مالية لتنفيذ مشروعه من كنيسته في فرنسا وبعض الكنائس الأوروبية، ومن البرنامج الغذائي العالمي، وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي. وبلغ عدد العاملين معه في مشروعه الكبير نحو ثلاثين ألف عامل، وتمكن خلال إحدى عشرة سنة من تشجير مئة مليون شجرة على اختلاف أنواعها في جبال الأوراس.
تخليداً لذكرى هذا المناضل الكبير، نظمت دار الثقافة في خنشلة رحلة إلى منطقة «بو حمامة» في قلب الأوراس بين خنشلة وأريس وباتنة، لزيارة المنجرة التي بدأ بها جان كربونار مشروعه بعد استقلال الجزائر.. استقل الضيوف حافلة خاصة اتجهوا بها إلى أعالي الأوراس، ومن حسن حظي أنني جلست في الذهاب والإياب إلى جانب السيدة مرغريت كربونار، التي حدثتني أثناء الرحلة - باللغة الإنجليزية- عن الأشجار التي ساهم زوجها بزراعتها في كلّ مكان على اتساع المدى، خضرتها الزاهية تتعاقب في وفرة وبلا نهاية على امتداد جبال الأوراس، تحدّثتْ عنها كأنها تحمل صورتها في ذاكرتها لأعوام طويلة دون توقف أو انقطاع.

لزِمَت الصمتَ في لحظة، لم تقل شيئاً... اقتربتْ في هدوء من نافذة الحافلة، أمسكَت يدها اليمنى بيسراها، وأخذت تنظر إلى ما بدا لها من قمة «شيليا»، أعلى قمة في جبال الأوراس، شعرتُ أنها تخرج عن محيط نفسها إلى أجواء مشحونة بالإثارة، كأنّها كانت تريد رسم كلّ شجرة من أشجار الأوراس في صفحات الزمن اللانهائي.

عندما وصلت الحافلة موقع المنجرة التي ما تزال تعمل حتى الآن، كان سكان قرية «بو حمامة» باستقبال السيدة مرغريت، استُقبلت كملكة متوَّجة من قِبَل عدد كبير من العمال الذين عملوا مع زوجها ذات يوم وهم في مقتبل العمر.. تحدثتْ معهم في ألفة عائلية، وتحدثوا عن ذكرياتهم مع زوجها، وعن ديناميته الخرافية ومواقفه المتماهية مع تطلعات الشعب الجزائري الوطنية.

أدركتُ من الكلمات التي كانت تجري على ألسنتهم عن جان كربونار، أنّ الأعمال الإنسانية لا تُنسى، بل تبقى محفورة في ثنايا الذاكرة الجمعية، تندفع وتنساب مع تتابع الأجيال، تبقى هنا وهناك وفي كلّ مكان.

بعد تلك الزيارة، نُظمت زيارات لمواقع أثرية في منطقة الأوراس، تمّ فيها التنقل من موقع تاريخي إلى آخر، الآثار فيها تتحدث عن أزمنة مختلفة، تمزج بين القديم والحديث، ومنها ما يشغل مساحة واسعة من ذاكرة الثورة والثوار، ومسيرة بناء البلاد من أجل حياة جديدة بعد تحقيق

النصر ونيل الحرية والاستقلال، تستنبت أحاسيس وطنية غير قابلة للتغيير والتبديل.

كنت أثناء تلك الزيارات أمعن النظر طويلاً في قمة «شيليا» التي تُرى من كلّ مكان في منطقة الأوراس، أتابع مشهدها الأخاذ عن بعد وأجدها رحبة مهيبة عند اقتراب الغسق، وأشد إشراقاً في وضح النهار مزينة بمساحات واسعة من الأشجار الباسقة، تمتد كسجادة خضراء على اتساع المدى دونما انتهاء.

استهواني سماع المزيد عن أخبار «شيليا» التاريخية، اتسعت دائرة معلوماتي عنها، نقلتني إلى أجواء مشحونة بالإثارة... تصفحت بإدراك سجلات صور كثيرة ببريق خاطف عن الإنسان والمكان، تقترب من أحاسيس كلّ الناس، تتردّد فيها أسماء الشهداء والأبطال، مكتوبة بحروف نافرة براقة فوق أوراق أشجار الأرز والزيتون، تشكل لوحة بديعة مزدانة بالخطوط والألوان، تشع منها أضواء جميلة.

أردت التعرف على قمة «شيليا» عن قرب، وفي صبيحة ذات يوم وجدتني متجهاً إليها، أقلتني سيارة اندفعت في مدينة باتنة من شارع إلى آخر، باتجاه محدد خارج زحام المدينة، كنت أنظر حولي بتأمل واسع للأرض والشجر والزهور والأعشاب، استمتعت بكلّ ما أرى، كلّ شيء حولي كان جميلاً يوحي بالتأمل.

أخذت باستنشاق الهواء العليل الذي يسري بين الأشجار، ينساب هنا وهناك، زادني حيوية ونشاطاً، واستمتعت بمنظر الأشجار وهي تمتد في

تسلسل متواصل في جميع الجهات في أدق ترتيب يُدهش الناظر إليها... شجرة تلو أخرى على اتساع المدى تلتحف الأرض بظلالها.

مع تواصل اندفاع السيارة إلى أعلى قمة، كانت تتكرر الأشجار بكثافة زائدة، تعبق رائحتها الزكية في كلّ الأرجاء، ويزداد بريقها اللامع مع أشعة الشمس التي تسبح حولها، تزيد الأشعة من جمال براعمها وأوراقها النضرة وأغصانها الملساء.

يمرّ الوقت ببطء فيما أنظر في خفايا المكان، وأسمع زقزقة الطيور وهي تتقافز فوق فروع الأشجار تارة، وتختفي تحت ظلالها تارة أخرى... ترسم صورة تزدان بألوان ريشها الجميلة، من الصعب أن تزول من الذاكرة.

تمتد الطريق صعوداً إلى أعلى دون انقطاع في رحب أرض واسعة، السيارة تتسلق الجبل بسرعة فائقة، لا تقيدها الأمكنة، تتخطى منعطفات طرق كثيرة وهي تتجه نحو أعلى قمة في جبال الأوراس.

في لحظة لا تنسى وصلت قمة «شيليا»... ألقيت نظرة عليها، أدرت بصري حولها، كانت معي، شديدة القرب مني، أسندت رأسي على صخرة كبيرة وقلت بصوت عالٍ: «ها هي شيليا الأوراس».

أدرت بصري يمنة ويسرة، متعطشاً إلى رؤية كل شيء حولي... شعرت بروائح طيبة تهبّ من كلّ ذرة تراب حولي على امتداد مساحات شاسعة، أدخلت البهجة والسرور إلى نفسي.

التقيت قمة «شيليا» بالعناق، أحسست وسط الأشجار التي تحيطني بصدى أصوات تنبعث من ماضي الأيام، أعادتني إلى أحداث واقعية كثيرة حدثت من قبل... معارك وانتصارات مجبولة بخشخشات الرصاص.

ها أنا أسترجع ذكرى تلك الأحداث بانفعال، أغمض عيني وأتخيل تفاصيل مشاهد من تلك الأحداث، يشتد فيها القتال ضدّ المحتل... تبلغ المعارك ذروتها بلحظات غير عادية من أجل تحرير الأرض، ومن أجل تزيين قمة «شيليا» بإكليل كبير من الغار.

شعرت في تخيلاتي أيضاً، أنني على مقربة من أماكن منقوشة في أعماق قلبي، تمتد على سفوح جبل الكرمل الذي كنت أراه في طفولتي بمسقط رأسي حيفا، وتمنحني فسحة أمل في أن أضمها في عيني في قادم الأيام.

1 كانون الأول 2013

أيامٌ في براغ

زرت مدينة براغ في زمن مضى، كنت وقتذاك طالبًا في جامعة بلغراد اليوغسلافية... جئتها مع زملاء لي، وقضيت فيها لحظات جميلة، لقطات صور كثيرة منها لا تزال عالقة في ذاكرتي، تُجسد في مجملها ملامح حمولات حضارية لبراغ وجمالياتها تركت فيّ أثراً كبيراً.

وتشاء الصدف أنْ أزور براغ من جديد في مطلع شهر تموز الماضي، ومنذ اللحظة الأولى التي وطِئت فيها قدمي أرض المطار، دفع بي الخيال إلى أيام زيارتي الأولى، أطياف غير مرئية مرت أمام ناظري من تلك الأيام الجميلة، لم تدم تخيلاتي طويلاً، كسر خطها سائق السيارة التي أقلّتني من المطار، ردّد على مسمعي كلمات كثيرة بلغته التشيكية، وشاركته الحديث باللغة الصربية القريبة من لغته، انصبّ حديثي معه حول مدينة براغ، ووجدته يحن إلى ماضي أيامها، وإلى المكانة المرموقة التي احتلتها من قبل، قبل طغيان القيم المادية، وانتشار نزعة القيم الاستهلاكية.

وصلت وسط المدينة، واخترت الإقامة في فندق على مقربة من الساحة القديمة، وما أن وضعت حقيبتي في الغرفة التي خصصت لي، حتى خرجت قاصداً نهر الفلتافا، لأبدأ به استئناف صلتي بالمدينة، بعد أن فارقتها قبل فترة طويلة من الزمن، فهالني منظره الساحر، تأملته عن قرب وهو يعبر المدينة ويشطرها إلى نصفين منذ آلاف السنين... مشيت سيراً

على الأقدام في شارع مجاور له، وسرعان ما وجدتني على مقربة من جسر تشارلز الذي يربط ضفتي النهرا ويعتبر أهم جسر في براغ، بالنظر إلى جمال تماثيله المكسوة بزخارف فنية مرهفة التصميم بطراز النحت الباروكي القديم، وثراء تراثه الأثري الذي يعزز قيمته الحضارية.

سرت فيه باتجاه ساحة مالا سترانا، ومنها صعدت إلى قلعة براغ، التي بُنيت في القرن التاسع الميلادي، كمقر للملوك والأمراء ورجال الدين، وهي موجودة في الزمن الراهن على لوائح اليونسكو كجزء من التراث الإنساني، وتُعتبر حسب مختلف المصادر أكبر قلاع العالم على الإطلاق... تجولت فيها، في وقت توافدت فيه جموع غفيرة من السياح، وبسبب الزحام اكتفيت بمشاهدة بعض أجزائها الرئيسية... وجدتها تمتد على مساحة كبيرة على هيئة قصور وأبنية كثيرة تزدان بزخارف الفنّ القوطي، وتتشابك مع حدائق ونوافير جميلة، من أهم معالمها القصر الملكي القديم، وكاتدرائية القديس فيتوس.

من القلعة اتجهت ثانية نحو جسر تشارلز، ومن ثم اتجهت إلى ساحة المدينة القديمة قاصداً دار البلدية، حيث يوجد على جدارها ثالث أقدم ساعة فلكية في العالم، تتكون من أجزاء كثيرة وتماثيل خشبية، تعمل بانتظام منذ القرن الخامس عشر وفق دورات فلكية ضمن دائرة الأبراج المعروفة، وقد أصبحت مع الأيام جزءاً أصيلاً من هوية براغ التاريخية... وقفت مع مجموعة من السياح أمام برجها العالي بتكويناته المعمارية القوطية المزينة بزخارف دقيقة، انتظرت معهم سماع دقاتها التي تتردّد كلّ

ساعة من ساعات النهار والليل بصورة متكررة وتُسمع في كلّ أرجاء المدينة، ورأيت أيضا التماثيل المثبتة على جانبي الساعة وهي تقومُ بحركات جذابة، وتُخرج أصواتـاً وأنغامـاً مثيرة، يتردّد صداها على اتساع المكان.

جلست في مقهى على بعد مسافة قصيرة من برج الساعة، كانت الشمس تُرسل أشعتها الناعمة الدافئة على البرج فتحيله إلى أطياف وردية وأرجوانية، تمليّت برهة طويلة بجمال الساعة، ومن ثم فردت أمامي مجموعة من النشرات السياحية، للتعرف على معالم براغ المهمة، عكفت عليها لكي أعرف ماذا ينبغي أن أشاهد من معالم وآثار، اهتممت بقراءة معلومات عن متحف الأديب التشيكي العالمي فرانز كافكا، استمتعت أجمل متعة بما جاء فيها، وقررت أن أزور هذا المتحف، لأنه لأديب يُعد واحداً من الشخصيات الأكثر أهميّة في القرن العشرين، أصداء أعماله الروائية والقصصية تدوي في العالم كلّه، ويتردد اسمه في بلده بالزهو والافتخار كرائد للكتابة المأساوية.

مضيت في اليوم التالي إلى شارع تسيهيلنا القريب من جسر تشارلز، لزيارة متحف كافكا، وجدت مقتنياته تتضمن جوانب كثيرة تتصل بطفولته وحياته الشخصية وقسوة والده، وسيرته الشخصية مع عدد من النساء، إضافة إلى نماذج من أعماله وكتاباته الأدبية بما فيها مخطوطات خطها بخط يده، ولوحات فنية انطباعيّة من رسمه، وصور كثيرة له من مراحل حياته المختلفة، وكذلك مراسلاته ومذكراته في أثناء مرضه، كلها

معروضة في أجواء خاصة، بفعل الأضواء والموسيقى التي تعطي الزائر صورة قريبة من حياة كافكا الحقيقية.

إلى جانب هذا الفيض الزاخر من المقتنيات، يوجد في باحة المتحف مجسم كبير لحرف «K» باللغة التشيكية، الذي أطلقه على شخوص بعض أعماله الإبداعية، وعبر به عن تصرفاتهم وسلوكهم ومعاملاتهم مع الآخرين، ورسم به الخطوط الأولى والأساسية لمفهومه عن الحياة في مجتمع أوروبا القاسي الذي عاش فيه في النصف الأول من القرن العشرين.

توقفت مطولاً في ساحة المتحف أمام تمثال كبير لكافكا من البرونز، تذكرت في تلك اللحظة ما عاناه في حياته من تمزقات ومآسٍ عديدة، عبر عنها في كتاباته، وتمكّن فيها من تصوير الظلام النفسي الذي يمزق الناس في المجتمع الرأسمالي القاسي الذي عاش فيه، وأصبحت بهذا أعماله من أبرز الشواهد وأصدقها على ما يعانيه الإنسان من آلام وضياع في الحياة، ولهذا وضع النقاد أدب كافكا في دائرة الأدب الأسود، أدب التشاؤم والحزن والأسى، علماً أنه كان إنسانيا، شامل النظرة، ويحمل أفكاراً اشتراكية ناضجة حكيمة، جعلت صلته بالعالم عميقة، وإحساسه بالناس والوجود رحيبًا.

في اليوم التالي لزيارة متحف كافكا، التقيت بالصديق أسعد فوزي شبيب الذي يقيم في مدينة براغ منذ عام 1983، حدثني عن تجربته فيها، وشيئاً فشيئاً اتسع الحديث وشمل اتحاد الطلاب العالمي، ومجلة قضايا السلم والاشتراكية، وشخصيات عربية أقامت في براغ لفترات قصيرة

كممثلين لأحزابهم في هيئة تحرير المجلة، منهم إميل حبيبي وتوفيق زياد، وشخصيات أخرى أقامت لفترات طويلة في مقدمتهم شاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري، الذي أقام في براغ نحو ثلاثة عقود بشكل متقطع ومتصل من عام 1961 حتى عام 1991، ونظم فيها مجموعة من قصائده الرائعة.

تحدثنا مطولاً عن الشاعر الكبير، وتطرق أسعد في حديثه إلى مقهى «سلافيا» الذي تعود الجواهري الجلوس فيه بشكل شبه يومي أثناء إقامته في براغ، وهو مقهى رواده في الغالب من الأدباء والشعراء والمثقفين والرسامين والفنانين، يعتبر الأشهر والأعرق بين عدد كبير من المقاهي الأخرى، يقع في وسط المدينة، على مقربة من بناية المسرح الوطني وجسر تشارلز، ويتميز بإطلالته على نهر الفلتافا وقلعة براغ، وقد تردّد عليه في الماضي مشاهير كثر من الأدباء والشعراء، مثل فرانز كافكا السابق ذكره، وراينر ماريا ريلكه الشاعر الألماني الشهير المولود بمدينة براغ، والشاعر ياروسلاف سيفرت، الذي يعتبره النقاد أكبر شاعر وجداني في الأدب التشيكي، وقد فاز بجائزة نوبل للآداب في عام 1984، كما تردّد على نفس المقهى بابلو نورودا وناظم حكمت، والموسيقار أنطونين دفورشاك، وغيرهم من المشاهير.

امتلأت نفسي برغبة عارمة لزيارة مقهى «سلافيا»، وتمّ لي ذلك في مساء اليوم التالي، اتجهت مع أسعد نحو شارع سميتانوفو، وسرعان ما بلغنا بناية المسرح الوطني، ثم انحرفنا نحو الجهة المقابلة، وبعد خطوات معدودة دخلنا مقهى «سلافيا» الشهير... أول ما شدّ انتباهي وجود

مجموعة كبيرة من الصور، معلقة بشكل مميز على الجدران لعدد كبير من مشاهير رواد المقهى من أزمنة مختلفة، منها صورة للشاعر محمد مهدي الجواهري وأخرى لناظم حكمت، جُلت بنظري في كلّ الجهات، أعجبني كلّ ما في المكان، السقف العالي المليء بالثريات البوهيمية، الشبابيك الطويلة، الستائر المغضّنة، والمقاعد والطاولات الموزعة على اتساع المكان بطابع خاص وأخاذ.

في لحظة توقفت أمام لوحة معلقة في صدر المقهى، استرعى نظري تماوج خطوطها التشكيلية... أعلمني أسعد بأنها للرسام التشيكي فيكتور أوليفا، اسمها «شارب الابسنث»، رسمها بملامح شفيفة تُبينه نفسه جالساً إلى طاولة في نفس المقهى، وأمامه شبح امرأة عارية، تخيلها وكأنها تسبح داخل كأسه، ورسم إلى جانبه أحد الندلاء وكراسي تظهر في أحد أطراف المقهى.

اخترنا طاولة قريبة من اللوحة، مقابل شباك تُرى منه سلسلة مدهشة من المشاهد تمتزج في الليل بألوان أضواء جميلة، وفيما كنا نتأمل انعكاسات الأضواء على تلك المشاهد، استأنفنا الحديث عن مشاهير رواد المقهى، وعن جلوسهم ساعات وساعات وسط أجواء خلوة إبداعية لها تأثيرها الكبير على تأجيج الرغبة في الكتابة السردية ونظم الشعر، والتحليق في آفاق ثقافية معرفية متعددة.

18 أيلول 2015

لا بدّ من تطوان وإن طال الزمن

تعددت الأماكن التي زرتها في المغرب، تنقلت بين مدن كثيرة، لملمت منها أجمل الذكريات، منها مدينة تطوان التي تعتبر أقصى نقطة عربية على بعد أميال قليلة من مضيق جبل طارق، ما أن وصلتها حتى تذكرت الشاعر السوري فخري البارودي الذي ذكر تطوان في قصيدته «بلادُ العرب أوطاني» ومن كلماتها: بلادُ العُرب أوطاني/ منَ الشام لبغدانِ/ ومن نجدٍ إلى يمنٍ/ إلى مِصرَ فتطوانِ/ فلا حدٌّ يباعدُنا/ ولا دينٌ يفرقنا/ لسان الضّاد يجمعُنا/ بغسانٍ وعدنانِ.

شدتني كلمات هذه القصيدة بإيقاعها الدلالي واللفظي، وقربتني من تطوان بإحساس داخلي عاطفي، شعرت بتآلف معها مع أنني لم أزرها من قبل... سرعان ما بدأت التجول فيها مشياً على الأقدام على مدى ساعات طوال، وجدتها مدينة جميلة تطلُ على البحر الأبيض المتوسط... تعبق أحياؤها القديمة بأريج التاريخ بطابع هندسي أندلسي، ويتجلى الزمن الراهن برمزية تمثال ضخم لحمامة بيضاء اللون ينتصب في وسط ساحة المدينة المركزية.

استوقفت شخصاً على مقربة من التمثال، وطرحت عليه عدة تساؤلات عن مدينته للتعرف عليها أكثر فأكثر... أجابني وابتسامة تعلو محياه، بأن التمثال من معالم المدينة الحديثة تمّت إقامته في ستينات القرن

الماضي بلون مبانيها البيضاء، وبسببه يُطلق على تطوان لقب الحمامة البيضاء، ومن ثم بيَّن لي بأنها كمدينة بدأت بالظهور بعد سقوط غرناطة، واستيطان أعداد كبيرة من الأندلسيين فيها، وما زالت تحتفظ حتى الآن بفنّهم المعماري الأندلسي في منازلها وقصورها ومساجدها وزواياها وفنادقها وجدران قصباتها القديمة.

وتفاجأت مما قاله في حديثه، عن تميز تطوان باعتلاء سدة الحكم فيها امرأة قبل ما يقرب من خمسمائة عام، اسمها «السيدة الحرة» ابنة الأمير علي بن موسى بن راشد... خلط محدثي الأحداث والوجوه من أيام مدينته القديمة خلطاً مزج فيه الخيال والأسطورة، ولطلاوة لسانه أنساني مرور السنين وتغير الأحقاب الماضية، وشعرت كأن «السيدة الحرة» تعيش بيننا، ولم تغب آثارها في زمن مضى.

واصلت المشي بعد ذلك حتى المساء، وفقدت فجأة حماسي للمشي، فعدت إلى الفندق الذي اخترته في الجزء الجديد من المدينة، جلست في مقهى مكشوف يقع في ساحته الأمامية... لم يكن في السماء غيمة واحدة، نظرت حولي بعينٍ مترصّدة، وحملني تلألؤ النجوم بعيداً عن كلّ شيء، إلى أعماق العصور الماضية، إلى «السيدة الحرة» التي استأثرت بحكم تطوان... وجدت قصتها تعطي الأمل للمرأة العربية لاستلام دفّة الحكم في الزمن المعاصر، الذي ما زالت تتحكم فيه الثقافة الذكورية، بسعيها الدائم إلى الحدّ من سلطة المرأة وتبوُّئها أعلى المناصب.

قصدت في صباح اليوم التالي الجزء القديم من المدينة، توقفت مطولاً عند سور تطوان، وجدته بسبعة أبواب، وحوله أجهزة دفاعية محصنة مثل قصبة جبل درسة في الشمال[1] وقصبة سيدي المنظري، وعدة أبراج عالية مثل أبراج باب العقلة وباب النوادر والبرج الشمالي الشرقي... دخلتُ المدينة القديمة من باب التوت، وتجولت في أحيائها... مشيت في أزقة وممرات كثيرة تعرف باسم الحرف التقليدية التي ما زالت تمارس فيها، وتعرفت على ساحات مليئة بجموع من الناس، يأتون للتزود بحاجاتهم من أسواقها القديمة، كسوق السمك والسوق الفوقي والمصداع، كلّها معالم تاريخية تتشبث في تكويناتها العمرانية بنبض تراثي أندلسي، تمّ على أساسه تسجيل تطوان كتراث إنساني في عام 1998، ضمن قائمة اليونسكو لمواقع التراث العالمي.

حالما اشتدت حرارة الجو، اتجهت إلى مقهى مليء بالسياح على مقربة من الأسواق القديمة، جلست فيه، وجدته يشرف على ساحة مبلطة بأحجار صغيرة جميلة كأنها من قطع الفسيفساء، تحيط بها حديقة من الزهور تنبعث منها رائحة زكية... تذكرت في تلك اللحظة بأن مدينة تطوان قد ارتبطت فيما مضى بعلاقة متميزة مع مدينة نابلس الفلسطينية، وقد كتبت عن هذه العلاقة قبل عدة سنوات، وبينت أنه بسببها درس في مدرسة النجاح بنابلس مجموعة من طلبة تطوان في عشرينات القرن الماضي، وقد حاولت طيلة السنوات الماضية البحث عن أثر لهم في المغرب ولم أوفق.

بقيت في مدينة تطوان لمدة ثلاثة أيام، اتجهت بعدها إلى الرباط التي بدأت منها سلسلة زياراتي لعدة مدن مغربية، وسرعان ما التقيت بصديق مغربي، تحدثت معه عن أمورٍ كثيرة تتعلق بزياراتي لعدد من المدن المغربية، كشفت له عن صور من تلك الزيارات تراكمت في ذاكرتي الواحدة فوق الأخرى، بكثير من الانفعالات والمشاعر الجميلة.

وفي لحظة من اللحظات سألته عن علاقة تطوان بنابلس، فرد بجواب مطولٍ، وجدت فيه الخبر اليقين... أفادني بأنّ هذه العلاقة من مآثر الحاج عبد السلام بنونة الملقب برائد الحركة الوطنية المغربية، وهو من تطوان، كان أكثر بكثير من مجرد زعيم محلي، فقد كانت له علاقات متينة مع كثير من المناضلين وأهل الفكر في المشرق العربي مثل الأمير شكيب أرسلان، وبعض رجالات نابلس، ولاهتمامه بالعلم أوفد في عشرينات القرن الماضي أربعة من أبنائه مع مجموعة من طلاب تطوان لمتابعة تعليمهم في مدرسة النجاح التي تحولت فيما بعد إلى جامعة النجاح الوطنية.

سررت بهذه المعلومة التي طالما كنت أبحث عنها، ولاستكمال كلّ جوانبها اتصل صديقي هاتفياً بابن الحاج عبد السلام بنونة الناشط في تطوان واسمه «أبو بكر»، لاستيضاح أسماء الطلبة الذين تابعوا معه تعليمهم في نابلس، وسرعان ما تمّ الحصول على المعلومات المطلوبة واجتاحني إحساس بالسعادة حين نقل لي صديقي ما سمعه عبر الهاتف، موضحاً لي بأن الحاج عبد السلام بنونة قد أوفد في البداية ابنه الطيب

بنونة مع محمد مصطفى أفيلال في عام 1928 للدراسة في مدرسة النجاح بنابلس، لحقهما أولاده إدريس والمهدي وأبو بكر في عام 1930، ولحق بهم بعد ذلك وفود أخرى من الطلبة حتى عام 1935 من مختلف أنحاء المغرب، من تطوان وسلا وفاس ومراكش، منهم: عبد السلام بن جلون، ومحمد الفاسي الحلفاوي ومحمد عبد السلام الخطيب ومحمد محمد الخطيب وعبد الله الخطيب وأحمد بن عبد الوهاب ومحمد بن جلون، وغيرهم من الطلبة.

عاشوا بواكير الصبا في نابلس، أكملوا فيها دراستهم، ومن ثم عادوا إلى تطوان، وحافظوا على تواصل دائم مع أهل فلسطين، وُيشهد لهم بأنهم ساهموا طيلة عمرهم في تأييد الحق الفلسطيني في مختلف المحافل السياسية، وأخص بالذكر منهم المهدي بنونة، وهو صحفي وسياسي ودبلوماسي من الحركة الوطنية المغربية، يعتبر رائدا من رواد الصحافة الوطنية المغربية، أسس العديد من الصحف، كما أسس وكالة المغرب العربي للأنباء كمؤسسة خاصة به قبل أن تُحول إلى جهاز حكومي، وساهم في الكفاح من أجل استقلال المغرب، بتأسيسه مكتب المغرب في نيويورك عام 1947، لتعريف العالم بحق بلده في الاستقلال، وقد أشار في مناسبات كثيرة إلى أنه وضع نفسه والمكتب تحت تصرف وفد الهيئة العربية العليا الفلسطينية لدى الأمم المتحدة، الذي تكون وقتذاك من إميل الغوري وعيسى نخلة وواصف كمال، اشترك معهم في اجتماعات

مهمة في إطار المنظمة الدولية، وكان لهم خير عون في تلك المرحلة الحاسمة من تاريخ القضية الفلسطينية.

وعلمت من مصادر كثيرة بأنَّ الهادي بنونة بقي وفيًّا طيلة عمره حتى رحيله في عام 2010 لذكرى أيام طفولته الباكرة في مدرسة النجاح، كان يعتز دوما في أحاديثه بأنه انغرس في قلبه حبُّ فلسطين في تلك الأيّام، وتلقى دروس الوطنية على يد قادة وطنيين من أهل نابلس خص بالذكر منهم محمد عزة دروزة والشيخ عبد الحميد السائح وأكرم زعيتر، وساعده هذا على الاهتمام مبكرًا بالشأنين السياسي والنضالي والظهور كفاعل مهم في التعريف بالقضية الفلسطينية، وفي تدشين حملات جمع التبرعات بعد النكبة لصالح ضحايا ومنكوبي فلسطين.

لعلَّ تدوين هذه الكلمات عن تطوان وأهلها، تساهم في استحضار كلّ ما هو جميل وأصيل من قيم زمننا الماضي، نحن بحاجة إلى اعتصار الدروس منها في ظلّ أزمات أيامنا المعاصرة.

24 أيلول 2016

الفصل الرابع

أيقونة النضال الأممي

أنطونيو التلحمي رفيق تشي جيفارا

التقيت بالمناضل الأممي أنطونيو التلحمي في مساء يوم قائظ من أيام تموز 1969، وقد تمَّ اللقاء بمدينة الكويت التي كنت أقيم فيها وقتذاك، وتحديداً في بيت قريب له اسمه نصري فليفل، كان يجلس في صالة الضيوف مع عبد الفتاح المليجي صحفي مصري من أصدقائي، وعلى مقربة من شخص آخر لم ألتق به من قبل.

كان صاحب البيت تحت تأثير مشاعر متأججة لزيارة قريبه أنطونيو له، ويعيش لحظة من لحظات الصفاء النفسي، ساعدته على تشكيل تلاحقٍ في مشاهد الجو العام للجلسة، سرعان ما ركز فيها على التعريف بقريبه أنطونيو وبالشخص الجالس بجانبه الذي قدمه باسم فاضل رشيد من العراق، تحدث بنشوة اعتزاز عن جزئيات أحداث ووقائع منتقاة، من تجاربهما النضالية في فلسطين ما قبل النكبة.

وبينما كانت الأفكار تدور في رأسي سريعة متدفقة حول ما سمعته عن المناضلين، التقط «أنطونيو» طرف الحديث بلهجة مناضل متمرس، فخيَّم صمتٌ مفاجئ، وأخذ يتحدث بتأثر شديد بتفصيلات موسعة، تعبر عن معرفته بخفايا الأمور المهمة ودقائقها، عن تداعيات ودروس حرب حزيران 1967، التي اندلعت قبل فترة قصيرة من الزمن.

مال بجسمه إلى الأمام، وهو يتفحص وجوه الحاضرين، قائلاً بشيء من المرارة:

«إنها نكسة نزعتْ منّا بهجة الحياة خلال ستة أيام لا أكثر، اختطفت كلّ أحلامنا، هُزمت فيها الأطراف العربية هزيمة ساحقة، وتقطعت أوصال الأرض العربية باحتلال أجزاء واسعة منها، كل شيء تغير حولنا خلال وقت قصير، يُشعرني هذا التغيُّر بحزن دائم، وألوان متشابكة من القهر».

كان أنطونيو يجلس على مقربة منّي، استأثر مظهره بإعجابي، واعترتني دهشة بالغة لأن ملامحه تكاد تشبه ملامح القائد الكوبي فيدل كاسترو... قامته طويلة فارعة، عريض المنكبين، له لحية كثيفة بلون فاحم تتدلى حتى أسفل عنقه، يلبس ثياباً شبه عسكرية بخضرة زاهية، تطبعه بملامح صارمة بعض الشيء وتزيده وجاهة، وعيناه واسعتان سوداوان تعبران عن سمات عربية واضحة على وجهه.

كان يتحدث بلغة عربية سليمة، ويرتب كلماته في جمل حسنة التكوين، تتخللها كلمات منتقاة من اللهجة العامية الفلسطينية، يعبر فيها بوضوح عما يريد قوله، تتعاقب كلماته تلقائياً على لسانه في وفرة وبلا نهاية، يردّدها بصوت جهوري، يُظهر قدرته الفائقة في الخطابة.

تنحدر جذور عائلته من مدينة بيت لحم الفلسطينية، هاجر جده لأبيه إلى كولومبيا إحدى دول أمريكا الجنوبية واستقر فيها، وتحت تأثير أفكار جده الوطنية، زار فلسطين عدة مرات، وشارك في أحداثها على نحو خاص أثناء ثورة 1936 وعام النكبة 1948، وتحت تأثير نفس هذه الأفكار التي تختزنها

ذاكرته، تعلم أصول المقاومة والتمرد، وأصبح داعماً فاعلاً لقوى المستضعفين في دول كثيرة، من دول أمريكا الجنوبية.

يعلو وجهه سيماء من الطيبة الحالمة... زيارته لقريبه نصري، تفتح كوة على ذاكرة مليئة بالأشخاص عن الأهل والأقارب، وصور بانورامية متشابكة عن حركة الفلسطيني وخطواته البعيدة خلف المحيطات، وهو يحمل وطنه في قلبه أينما حلّ وارتحل في منافي الاغتراب.

ما كان لمخلوق بشري أن يبدو أكثر سعادة من أنطونيو، لزيارته قريبه نصري، كانت ترتسم على محياه ابتسامة تعبر عن مشاعره بوضوح، وتفصح عن تأسيس علاقة وثيقة بينهما، تتشابك مع فضاءات مكانية بعمق لا محدود، تشكل بمجموعها لوحة واسعة تجسد مدينة بيت لحم بإطار واسع، وخيوط تلامس أصولهما القديمة، يتعرفان بها على الذات، وعلى العلاقة الحقيقية بين الكائن والمكان، ويشدان تلك الخيوط في أعماقهما شداً محكماً، يجمعان بها بين زمنين مختلفين: ماضٍ بعيدٍ في رحاب الوطن، وحاضرٍ توشحه ظلال النكسة والشتات.

مشاهد الماضي تلاحقت بحديث أنطونيو بكلمات مؤثرة، تطرق بها إلى جوانب متصلة بأيام شبابه ونضاله من أجل فلسطين، غاص في غياهب الذاكرة وسراديبها، وتحدث بحنكة سردية متوهجة، وعاطفة حارة مندفعة عن علاقته بصديقه «فاضل» عندما كان آنذاك في السابعة والعشرين، وخاض معه عدة معارك قريبة من القدس، آخرها معركة القسطل المحفورة في التاريخ الفلسطيني الحديث.

ركز في جموح عاطفي ونظرة ثاقبة على مشاركتهما المعارك التي خاضها جيش الجهاد المقدس، في مدينة القدس ونواحيها، وعلى تفاعلهما مع الناس والأحداث والمتغيرات الحاسمة التي جرت حولهما على امتداد الأرض الفلسطينية.

في لحظة، اتجه ببصره إلى «فاضل»، وقال بحماس ظاهر:

«أُقدِّم لكم قائدي فاضل رشيد، كنت إلى جانبه في معركة القسطل المهمة التي خضناها معاً على مقربة من مدينة القدس، كانت السماء في أعلى القرية تفتح كواتها مع تباشير الفجر المبكرة، لم تتناثر خيوط الضوء في ذلك الصباح، بقيت متشحة بغلالة من الظلام، ولم تدبّ الحياة من جديد في ذلك اليوم الحزين، بعد مقتل القائد الأعلى وهو في قمة هرمه النضالي، وحده فاضل أكمل قيادة المعركة بجدارة وشجاعة، رغم ما عاناه من حزن لمقتل قائده، وسقوط قرية القسطل، التي تشرف على طريق القدس يافا الرئيسة».

تطلع أنطونيو إلى الجالسين، واستأنف حديثه بإسهاب عن تجربة رفيقه فاضل النضالية في لمساتٍ وجدانية، كان يجمع شتات أفكاره من أبعادٍ سحيقة، انتقى منها إشارات دلالية كثيرة، بما فيها من معانٍ ذات صلة بدور فاضل الكبير في ثورة رشيد عالي الكيلاني، التي ألهبت العراق في السنة الأولى من أربعينيات القرن الماضي، وتم اعتقاله بسببها من قبل الإنجليز ونفيه إلى إحدى جزر موريشيوس بوسط المحيط الهندي، وخضوعه في سجن «بورت لويس» لصنوف مختلفة من التعذيب الوحشي والضرب والإهانة.

استرجع في حديثه لحظاتٍ تتعلق باعتلال صحته، وخضوعه للعلاج في ألمانيا بعد خروجه من المعتقل، ومن ثم تطوعه للدفاع عن فلسطين وانخراطه كقائد كبير في قوات الجهاد المقدس، وفي أعقاب النكبة قادتهُ خطاه إلى دولة الكويت، وتقديراً لنضاله الطويل في فلسطين والعراق، ساعده رفاقه على تقلد منصب رفيع في إحدى المؤسسات التابعة لوزارة المالية الكويتية.

نظر إذ ذاك أحدهما إلى الآخر، تغلب فاضل على الخجل الذي اعترى وجهه نتيجة مديح أنطونيو له على إيقاع أحداث حقيقية، لم يقل شيئًا، أطرق ببصره وسكت.

تجاذبنا كلنا أطراف الحديث بأجواءٍ حميمية، أمسكنا بخيوط كثيرة كشفنا بها عن جوانب بارزة في مسارات القضية الفلسطينية، تعاقبت عليها السنون واختلطت الأحداث وتداعيات النكبة، التي تركت أثرها العميق على كامل الأوضاع العربية، وجرَّت وراءها متواليات من الهزائم على كلّ المستويات.

اتسع مدى مداخلات الصحفي عبد الفتاح المليجي، تحدث بلهجة الصحفي العالم ببواطن الأمور، أورد حكايا مشبعة بأطياف دلالات وحقائق كثيرة، عن مرارة نكسة حزيران التي حدثت قبل عامين.

فجأة توقف عن الحديث، ثم رمق أنطونيو بابتسامة امتزج فيها الاحترام واللطف، وقال له متسائلاً بجدية واضحة:

«حان الوقت لإجراء المقابلة الصحفية، لتعريف القارئ الكويتي عنك وعن نضالك الأممي».

حوّم على وجه أنطونيو طيف ابتسامة، وأجاب قائلا:

«إني على استعداد للإجابة عن كلّ أسئلتك في سياق تفصيلي، وفي ترابط واتصال مع دلالات مهمة، عن تجاربي على امتداد أيامي الماضية، وعن جوهر آرائي عن الوطن والانتماء والنضال من أجل المظلومين في كل مكان».

جرت المقابلة في إطار واسع من التساؤلات والإجابات، تم من خلالها نزع الحجاب عن الجوانب الخفية من حياة مناضل أممي كبير، تحدث عنها أنطونيو بأسلوب واضح، فسح المجال لنفسه للكلام عن الأبعاد المختلفة لمسيرته الحياتية، أظهر معالمها بجلاء، بكشف خفاياها الدفينة بكل ما فيها من انشغالات فكرية وأحداث نضالية شارك فيها، ممزوجة بمواقف صعبة ولحظات حرجة عايشها في مناسبات كثيرة، نسج منها برؤية متبصّرة لوحة بانورامية متكاملة لحياته متداخلة في تشعباتها الممتدة على اتساع دول عديدة، منها: كوبا وكولومبيا والمكسيك وغواتيمالا وبوليفيا وفلسطين، لكل منها قصة مهمة عاشها على مدار أيامه.

كان عبد الفتاح يطرح أسئلته الواحد تلو الآخر، ويتابع أجوبة أنطونيو، وجهاز تسجيله الصغير، يُدوِّن كل ما يدور بينهما... اعتراه إحساس بضرورة التوسع في الأمور المتعلقة بفلسطين، خاصة نزعة الهجرة عند أهالي بيت لحم ورام الله، وفي هذا الجانب تحدث أنطونيو عن هجرة جده من بيت لحم إلى كولومبيا قبل نحو مائة عام، وبين تميزه عن الآخرين بارتباطه ببلده الأم

حتى آخر لحظة في حياته، وأنه هو الذي ربَّاه مع إخوته على حبّ فلسطين والموت من أجلها.

كان عبد الفتاح يستمع منحرفاً ببصره عن أنطونيو، دون أن يقاطعه، وقد بدا عليه الانفعال والتأثر، وفي لحظة سأله آخر سؤال عن أصدقائه المناضلين في كوبا، وبيَّن دون تردّد أنه التقى بتشي جيفارا بالمصادفة في بوغوتا في الثاني من تموز عام 1952، ومنذ ذلك اليوم ارتبطا معاً بأواصر صداقة تنامت مع الأيام، وتوثقت في المكسيك، ومن خلاله تعرف على فيدل كاسترو، وكان ضمن النواة الأولى للثورة الكوبية التي أبحرت على متن القارب «غرانما» من ميناء توكسبان المكسيكي إلى سواحل جنوب كوبا، ثم ساهم في معارك سانتا كلارا التي حققت النصر للثورة.

انتهت المقابلة في ساعة متأخرة من الليل، شكره عبد الفتاح، ووصف أجوبته بالترانيم التي خرجت من قلبه بنبرة صادقة... اعتصم الجميع بالصمت، وفي لحظة تطلع فاضل إلى أنطونيو، قائلاً:

«ما سمعته منك رواية ذات أساس حقيقي بدون أي بعد متخيل، لا بدّ أن تُدوَّن في كتاب قبل أن يطويها النسيان».

فأجابه بهدوء:

«يصعب علي كتابتها باللغة العربية».

وهنا قلت:

«عليك فقط تسجيلها على أشرطة كاسيت».

استهواه اقتراحي، واتفقت مع فاضل على الجلوس مع أنطونيو، لتسجيل قصة حياته من صميم الواقع بعيداً عن الخيال.

انفض السامر، بعد أن اتفقنا على اللقاء في اليوم التالي، لبدء التسجيل على أشرطة كاسيت بجلسات خاصة في بيت نصري، باتباع تسلسل زمني ثابت على مدى عشرة أيام.

***

التقينا ثلاثتنا بعد ظهيرة اليوم التالي، أحضرت معي جهاز تسجيل حديث، ولأسباب لها دلالاتها الضمنية الخاصة بأنطونيو، وجد أن قصة حياته تبدأ من الفترة التي كان فيها جده على قيد الحياة، لأنه ساهم بقدر كبير في صوغ فكره، وتعريفه على أصوله العربية والفلسطينية، وخلفت حكاياه في ذاكرة الحفيد صدى عصياً على النسيان.

اعترته رعشة حادة وهو يرجع بذاكرته إلى بدايات ذكرياته... استمرت عمليات التسجيل طيلة عشرة أيام، كنا نلتقي كلّ يوم لعدة ساعات وحتى ساعة متأخرة من الليل، كان أنطونيو خلالها يبحر مطولاً في مسارات حياته على أكمل وجه، يتحدث بتمهل وصوت مؤثر، بكلمات ضمن تركيب لغوي واضح... تمكن من ملء خمسة عشر شريطاً، استمعنا في النهاية إلى عدة أشرطة منها للتأكد من جودة التسجيل، بعد ذلك أخذها فاضل لحفظها وتفريغها وتسجيل كل ما رواه أنطونيو على الورق.

بعد ثلاثة أيام من انتهاء لقاءات تسجيل الأشرطة، اتصل بي فاضل هاتفياً، ليخبرني أن أنطونيو توفي وهو نائم في فراشه... اجتاحتني نوبة رهيبة

من الضيق لسماعي النبأ الحزين، اختطفته يد المنون وهو في الستين من عمره، بعد حياة حافلة كرس فيها فكره المُلهم وطاقته، في خدمة فلسطين وكوبا وأمريكا الجنوبية والإنسانية جمعاء.

في اليوم التالي شُيعت جنازته، حُمل جثمانه على الأعناق ملفوفاً بالعلم الفلسطيني، بمشاركة حشد كبير من أهل الكويت وأبناء الجالية الفلسطينية، وتم دفنه في مقبرة المسيحيين الواقعة على أطراف منطقة الصليبخات، وقد زاد من حزن الناس عليه، ما قرؤوه عنه في المقابلة الصحفية التي نشرتها صحيفة الهدف قبل أيام قليلة، وقد عرَفته كمناضل أممي رائد ومرموق بتجربته وعطاءاته النضالية، احتضن قضايا وهموم الإنسانية في قلبه ووجدانه.

***

مرت الأيام مثقلة بمستجداتها، واصلت العمل في الكويت، وغادر فاضل إلى بلده العراق ثم استقر به المقام في ألمانيا، وبعد انقضاء سنوات عديدة زرته في بلدة أوبلادن على مقربة من مدينة كولن التي أقام فيها، وفي معرض حديثنا عن أيامنا في الكويت تذكرنا صديقنا أنطونيو، وعلمت منه بلهجة تنمّ عن الندم، أنه لم يتمكن من تفريغ الأشرطة لسوء حالته الصحية، وما زالت لديه على حالها كما سجلناها بصوت أنطونيو من قبل.

تسلمتها منه، وعملت طيلة فترة طويلة على تفريغها، مكتفياً بكتابتها على أوراقي كما رواها، توغلت في مراجعتها، ثم قمت بصياغتها من جديد باللغة التي هي عليها الآن، كان لدي من الوقت الكافي كي أستبدل كلماته القريبة من اللهجة العامية بأخرى ملائمة من اللغة العربية الفصحى، لكنني أبقيت

على تراكيبه النصية على حالها كما صاغها بكل ما فيها من أحداث وأشخاص وآراء في أمور حياته وزمانه.

إنها روايته وحده كما رواها، لا شيء فيها من نسيج خيالي.

***

بقيت الرواية فترة طويلة من الزمن أسيرة أوراقي، أردت خلال تلك الفترة التعرف على الأماكن التي عاش فيها أنطونيو في زمن مضى، لأنها كانت المحفز الأكثر خصوبة لعطائه النضالي، فقمت بزيارة مدينته باغوتا عاصمة كولومبيا، كما زرت بوليفيا وكوبا، وشعرت بانفتاح رحب يستثير قوى التأمل والتفكير في كل ما رأيت في تلك الأمكنة، كما سمعت مقولة أثناء زيارتي متحف الثورة الكوبية مفادها «علاقة الزمن بالمناضلين علاقة حميمية لا تنفك أبداً، لا يهم من مات منهم أو بقي على قيد الحياة فهم جميعاً أحياء في الذاكرة الجمعية لشعوبهم على مدى الأيام».

ولكي تبقى سيرة أنطونيو التلحمي منقوشة في الذاكرة الجمعية الفلسطينية، أصدرتها مؤخرا في كتاب بعنوان «أنطونيو التلحمي رفيق تشي جيفارا»، آمل أن يكون جديرا بالقراءة والتأمل والدرس.

17 شباط 2020

الفصل الخامس

عـــن الكورونا

صدى أيام مضت...

استذكارات في زمن الكورونا

تمرّ أيام الكورونا على وتيرة واحدة دون تغير، وفق منظور خاص بها تخيم عليه الهواجس من المجهول، وفي غمار سطوتها أجبرني الحجر الصحي الإلزامي على البقاء أسيراً بين جدران بيت غير بيتي، أعيش فيه حياة جديدة لم أعهدها من قبل، أشعر فيها بأنني في عُباب بحر هائج، أجوب آفاق الكون هائما أشد رحالي إلى أماكن كثيرة ملبدة بغيوم الفجيعة، أهبط فيها وأتحسّس آلامها ومآسيها الحزينة.

هكذا أعيش في عالم الخيال متنقلاً من بلد إلى آخر وأنا في عزلتي في ظلال ظروف الحجر التي تلازمني منذ أيام طويلة، وفي ذات مساء طرقت باب الخيال الواسع فتجسمت أمامي مدينة مونتريال التي هاجرت إليها قبل ثلاثة عقود، وآتلف فيها مع أصدقاء لي منذ سنوات طويلة، وفي لحظة اختمرت وجوههم في ذاكرتي، ثم أخذت صورهم تتجسم امام عينيّ، مختلطة بأحاسيس مفعمة بالمحبة، وسرعان ما سمعت صدى أحاديثهم الطلية التي كانوا يرددونها عن الوطن والشتات ومضامين الحياة في مونتريال التي نحيا في كنفها، في صفو أيامها الجارية.

خلال نشوة هذا التذكر ما هي إلا لحظات حتى تعالى صدى صوت أحد أصدقائي، الذي كان يجمع شملنا، يدعونا دوما عبر الهاتف بصوته

الهادئ، لكي نلتقي في أحد المقاهي في الوقت الذي يحدّده في مركز المدينة، نضبط جلوسنا في زاوية هادئة ولا نحس بجلبة أحاديث الناس من حولنا، ها أنا ألحظهم كلهم الآن أرى قسمات وجوههم في لوحة غائرة في عمق ذاكرتي، وأسمع صدى أصواتهم ورنين ضحكهم، يعلو في خط تصاعدي بين الحين والحين.

إنني شغوف بالعودة إلى تلك الجلسات التي تزدحم بقطوف أحاديث لا تُنسى، أشتاق إلى كلّ جلساتهم وبخاصة تلك الجلسة التي أشبه ما تكون بنزهة خلوية امتزجت بموسيقى أمواج نهر سان لوران الذي يعانق مونتريال من كلّ الجهات، التقينا في تلك الجلسة على متن قارب كبير يملكه أحد الأصدقاء، ورغم أنّ القارب كان متشبّثًا بالشاطئ إلا أنّ المكان قد تجلّى بمشاهد تشكيلية تمنح سحرا لا يوصف، الطبيعة آسرة تزهو بمشتقات لونية، يضمها النهر في إطار مكاني مطلق السعة.

من وحي تلك الأجواء تشكلت أحاديثنا في تلك الجلسة، تداخلت في تشابكات كثيرة، أتذكر منها الآن حديث صاحب القارب عن تجاربه مع النهر بكل ما تحمله من مضامين، أحسّ بها الآن، أتخيل رقص الأمواج على الشطآن بتآلف متعدّد الأصوات، أتتبع حديثه في حجري الصحي الإلزامي بعيدا عن مونتريال وأحس أنه يغدق عليّ فيضًا من المتعة.

أتذكر ما قاله صاحب القارب بنظرة كاشفة عن تفاصيل رحلاته في نهر سان لوران في خضم أمواجه الزاخرة أذكر منها الآن توقفه على مقربة من محميات السكان الأصليين من الهنود الحمر، الذين استأثروا في حديثه

بخصوصية حميمة ونكهة خاصة، نظراً لعمق مآسيهم بنبض أزلي، طاف بكلماته عن حقيقة حياتهم الحالية بتفاصيل متلاحقة، وكنّا نردّد على وقع حديثه مداخلات عنهم بتعبيرات متدفقة.

اشتملت رحلاته على بعد مكاني أوسع، حدثنا في سياقها عن رحلة قام بها في أرخبيل الألف جزيرة المتناثرة في نهر سان لوران، التي منحتها الطبيعة صبغة خلود أبدي، وصفها لنا بدقة بتشكيل مرئي يوحي بقدرته على رسم لوحات لها بتكوينات لونية، وبقدرته على الحديث عن ساكنيها من الناس والطيور في حديث طويل دونما انتهاء.

لا أنسى المقاهي التي كنا نجلس فيها، تعددت كنا ننتقيها ونحدّد ساعة اللقاء فيها، نجلس ونُسرف في الحديث عن كلّ شيء حولنا، ولا ننسى الوطن بكل أحداثه... نفحات منه كنا نحس بها تهب من هنا وهناك تحيي فينا حياتنا الماضية المليئة بانفعالاتها وأحداثها وذكرياتها.

ذات يوم بينما كنت أسير على غير هدى في شارع سانت كاترين، الذي نرتاد مقاهيه دوما في مركز المدينة، توقفت على مقربة من تقاطع هذا الشارع مع شارع فورت، نظرت أمامي فوجدت يافطة صغيرة عليها كلمات تشير إلى مقهى باسم شيراز، دخلت عبر باب مفتوح في أسفل اليافطة، فوجدت نفسي في محل لبيع الزهور، تفوح منه أجمل الروائح التي اختلطت بعضها ببعض، فأغرقت حاسة شمي بشذى عبيرها.

في لحظة ظننت أنني ضللت طريقي، غير أنني وجدت بعض المارين يتجهون إلى آخر الممر الذي أنا فيه فسرت خلفهم، ثم صعدت إلى أعلى

فوق درجات سلم خشبي، وفي الحال كنت في المقهى نظرت يمنة ويسرة فوجدته بنكهة أخرى غير المقاهي العادية، وزاد تعلقي به عندما رأيت عدة نسخ باللغة الإنجليزية من ديوان الشاعر الكبير حافظ الشيرازي مصفوفة على رفوف مثبتة على الجدران، نفس الشاعر الذي تأثر به نيتشه وغوته وآلاف الشعراء في الغرب، وما زالت أشعاره متوهجة في العالم كلّه بعد خمسة قرون من مماته.

ثم نظرت إلى الطرف الآخر من الجدران فوجدت عدة نسخ باللغة الإنجليزية من دواوين الشاعر الأممي الكبير ناظم حكمت، تراءى لي كطيف عابر يقف أمامي، ازدادت حيرتي واتجهت إلى سيدة، علمت منها أنها صاحبة المقهى، طلبت منها توضيح السبب في الجمع ما بين الشاعرين، وفي الحال أجابتني بقولها: «أمي إيرانية من مدينة شيراز كانت تعشق حافظ الشيرازي، تعزف على آلة موسيقية تقليدية، وتهتز بشَعرها الداكن المسترسل على ظهرها وهي تغني أشعاره، وكثرما سمعتها تردد بين الوقت والآخر هذا البيت من أشعاره: كلماتي تخفي أسراراً ذهبية لا يصعب إيجادها، ستشفي قلبك من مئة خوف وداء».

وبعد هذا التوضيح عن حافظ الشيرازي، قالت لي وهي تدق على أبواب زمن قديم: «والدي كان رفيقا لناظم حكمت، حمل مثله الجنسية التركية وسجن معه بناء على انتمائهما للحزب الشيوعي التركي، ثم تمكنا معا ببصيرة عميقة نفاذة الهروب من السجن إلى موسكو، وبعد فترة قصيرة من الزمن التقى والدي بأمي هناك، ومرت حياتهما في دورانها بما

يشبه جريان التيار المائي، وبعد موتهما تعاقبت السنون في دورتها المعهودة وأوصلتني إلى مهجري الكندي».

ثم أنهت حديثها بقولها: «أصبحت ذكرياتي عن حياتي معهما لازمة من لوازمي أردّدها دوماً في تلقائية محببة».

فرحاً بما سمعته منها، لم أخف اهتمامي بالشاعر الشيرازي الصوفي الذي يعتبر من أشهر شعراء إيران، ترتقي الروح بشعره في مدارج الترقي إلى أعلى السماء، وعبرت لها في الوقت نفسه عن ابتهاجي الدائم بقراءة شعر ناظم حكمت، الذي يتسم شعره بالخلود وسط إطار محكم من الأزمنة.

ردّدت على مسمع محدثتي ما قاله الشاعر الكبير:

أجمل الأيام، تلك التي لم نعشها بعد
أجمل البحار، تلك التي لم نبحر فيها بعد
أجمل الأطفال، هم الذين لم يولدوا بعد
أجمل الزهور، تلك التي لم نرَها بعد
أجمل الكلمات، تلك التي لم أقلها بعد
وأجمل القصائد، تلك التي لم أكتبها بعد.

بعد هذا اللقاء الذي أفرحني، وعدت صاحبة المقهى أن أحضر قريباً مع أصدقائي لكي أعرفهم على مقهاها وخبايا مكنوناته التي تكثف بصرياً ذكريات عن شاعرين من أهم الشعراء.

أخبرت أصدقائي عن مقهى شيراز وقررنا اللقاء فيه في جلستنا القادمة، وبالفعل التقينا كلنا بعد عصر يوم كانت الشمس تنسج فيه أشعتها الذهبية على مونتريال من كلّ جانب، جلسنا في زاوية وسمعنا أغانيَ تردّدت كلماتها في آذاننا بصوت خافت، وبينما كنا نتجاذب أطراف الحديث عن الشاعرين الكبيرين حافظ الشيرازي وناظم حكمت، بدأنا باحتساء الشاي من إبريق زجاجي كان يغلي أمامنا بفعل فتيل ملتهب متصل بأسفل الإبريق في تجانس ملحوظ، انساب الوقت في هذه الأجواء ببطء شديد، ثم انفضّ السامر واتجهنا إلى بيوتنا في وقت كانت فيه مونتريال تغط في سكون الليل.

أتذكر تلك الجلسة، أرسمها بتلذّذ في مخيالي، وأنا أعيش ظلمة أيام حجري الصحي الإلزامي المتلاحقة بعيدا عن مونتريال، أتابع مخزونها الخصب من الأحاديث في لمحات خاطفة بكل ما فيها من ألوان متعة حسيّة، أخفّف بها روتين الحياة المملة التي أعيشها بين جدران وأبواب محكمة الإغلاق... أعبر عن شوقي إلى تلك الجلسة في غمار تساؤلات كثيرة، أكرر السؤال تلو السؤال، وأرفع صوتي قائلاً: متى تنتهي ظلمة الكورونا البغيضة وتعود الحياة ثانية إلى سابق عهدها؟

يشرد ذهني مع تلك التساؤلات، أشعر بالضعف تارة، وفي القوة تارة أخرى، يزداد ضعفي عندما أسترق السمع إلى نشرات الأخبار التي يردّدها التلفاز، وأزداد قوة عندما أسمع صدى أصوات أصدقائي في هدأة الليل،

تتفتح أساريري وأحسّ بوهج فوانيس مضيئة، ستعيدني ثانية إلى مقهى شيراز، لكي أنشد أمام الجالسين ما قاله ناظم حكمت في إحدى قصائده:

لا تكن أبداً مغلوباً
تقدم تقدم تعدَّ الجبل واجتز البحر
لا تلتفت أبداً إلى الوراء.

10 حزيران 2020

أيام الكورونا لا تُنسى

أيام الحجر الإلزامي في عمان تمر ببطء شديد، تُشعرني أنني لست كما كنت بالأمس، إنها تعزلني بحزم وسط أمواج ضباب تلفعني، أحاول أن أخلق أثراً لها على أوراقي، ها أنا أكتب عنها بكلمات متشابكة، تغمر بعضها بعضا في سطور متمايلة، قلمي لا يستطيع تشكيلها لما أعانيه من رجفة في يدي، في ظلّ أجواء مفعمة بالتوجس من الجائحة الشريرة التي تنشر الموت بفراسة في العالم أجمع.

أحاول جمع أفكاري التي تنطلق هنا وهناك انطلاق الطيور التي أصابها الحريق، وأشعر في أعماق نفسي أنني أصبحت أسيرا بين جدران بيتي، أحاول أنْ أتخطى مكاني الضيق خيالياً إلى بعد مكاني أوسع، أجوب أمكنة كثيرة دون توقف، وفي لحظة أتوقف عند أبواب سجون غائرة في الأرض المحتلة، تفتح ذاكرتي المثقلة بصور وحكايات كثيرة للأسرى من أبناء بلدي، أغمض عينيّ وأتخيل زنازينهم التي تفوح منها رائحة الموت، أشعر بهم في أيام الكورونا أكثر من ذي قبل، أسمع أصواتهم بتكوينات عالية الإيقاع، أحسّ بها، لا تنفصل عني وتقربني منهم، وتؤكد لي في رؤية كاشفة أنّ حجري في بيتي لا يعني شيئاً بالنسبة لمعاناتهم التي تمتد إلى ما لا نهاية في براثن الزمن.

أدرك جيداً أن ظروفي لا تقارن بظروف أسير حكم عليه من قبل جلاده بعشرات السنين أو أسرى حكم عليهم بعدة مؤبدات وهم في ريعان الشباب، لم تعرف محاكم العالم مثل أحكامهم في تاريخها الطويل، أشعر أن عتمة دهاليز سجونهم تسلب بصري وأنا أحدق بهم عن بعد، وفي لحظة أضغط بإحدى يديّ على الأخرى، وأغوص في خيالي للقرب من أحدهم، مطرق الرأس في سكون المكان أخطو عدة خطوات تدفعني إلى التقدم، وأجد كلّ شيء حولي أصم، أسير وأحاول إيقاف الزمن بحركته السريعة، يستجيب لي وأصل إلى الأسير في زنزانته، أعانقه بأهداب جفوني، أقف أمامه وأسمع صوته الدافِئ يقول لي: إنّ جريان الزمن في السجن يتم بدون متنفس لتنوع الأحداث، يخفق على وتيرة واحدة لا يُسمع فيها سوى أصوات حراس تأتي من كلّ الجهات ممزوجة بكلمات كره لا تعرفها مفردات الحضارة الإنسانية.

أتجول في زنزانته أجد على جدرانها عشرات الصور، ثلاث صور منها أثارتني: واحدة للزعيم الإفريقي نلسون منديلا والثانية للمناضل الأممي تشي جيفارا والثالثة للشاعر الأممي لوركا، لاحظت أنه يقتفي خطوطها بعينيه الواسعتين بعاطفة كبيرة، أعلمني أنها تسليه في أحاديثها معه، وفي أحيان تحمله فوق نوارس خارج الزمان والمكان، تتجول به في أمكنة بعيدة بعيدة ثم تعود به إلى زنزانته من جديد. تلون حديثه عن السجن بألوان كثيرة أثقلها بحمولات مفردات كثيرة قالها بصوت خفيض سمعتها رغم عدم قدرتي على السمع بشكل طبيعي.

لاحظت من حديثه أنه دخل السجن عندما كان في الثامنة عشرة من عمره وأنه يدخل الآن سن الخمسين، سجنه حثّ عزيمته على الدراسة، تدرج فيها حتى حصل على أعلى شهادة جامعية، أطلت النظر على شهادته المعلقة فوق رأسه، وتأكد لي في تلك اللحظة أن قيمة الإنسان بما يفعله، كررت هذه الكلمات في أعماقي في وقت كان به رجاج زنزانته الحديدي الثقيل يُحكم عليه، عندها تمنيت لو أنني أسير زنزانته لأبقى محله فيها إلى الأبد، كي أحرره من لفح سموم عدونا المقيتة.

لقائي به حثني على القراءة في زمن الكورونا، فتشت في مكتبتي عن السير الذاتية التي أعشق قراءتها وأول ما فعلته استبعدت قراءة سير أهل السياسة ولمت نفسي لاقتنائها لأنّ أخبارها ممزوجة بأنسجة من الكذب لا حدّ له، وتبوح فقط بعظمة أصحابها، مع أنه ليس لهم علاقة بالعظمة وتسترخي ظلال أعمالهم الفاسدة على دقائق أيامهم وترافقهم حتى وسائدهم في الليل، ويلتحفون بها أثناء النوم، حملت سيرهم المتوفرة في مكتبتي ثم رميتها في أقرب حاوية للزبالة حتى تنخرها الكورونا وتمزجها مع بقايا الأطعمة الفاسدة ثم تختمر أكاذيبهم فيها.

بعدها عدت إلى مكتبتي وأخذت منها مجموعة من السير والمذكرات، أعطتني متعة القراءة لأن أصحابها من الصادقين، تصفحت كتبهم وتشابكت مفرداتهم معي غارت في أعماقي، وكنت أسمع خرير أصواتهم يخرج من أوراقهم يتقافز حولي كما يتقافز الفراش فوق زهور النرجس والدحنون في أيام الربيع الجميلة، أخذت كلّ يوم أقبل على

القراءة بلهفة لا توصف، ألتهم الورق التهاماً وأشق طريقي بين الكتب التي اخترتها وهي كثيرة تزهو بأسماء مؤلفيها، منهم: حنا نقارة، حنا أبو حنا، سميح القاسم، بابلو نيرودا، عبد العزيز العُطي، يعقوب زيادين، فائق وراد، وشهادات عن سليمان النجاب، وأخرى عن تيسير عاروري، كما قرأت مذكرات عبد الرحمن النجاب وصلاح الموسى.

ذات يوم من أيام الحجر المنزلي كانت فيه الشمس ساطعة تترامى أشعتها في كلّ مكان، اندفعت في داخلي قوة الحياة من جديد، أحسست برغبة لقضاء وقتي بالقراءة، وفي الحال اتجهت مسرعًا إلى جلال الدين الرومي لكي أسمع صدى أفكاره عن أسرار الموت والوجود ومقاييس الزمن اللانهائي، إنّه أفضل من أستطيع اللجوء إليه في ظروفي الحالية.

تصفحت بعض كتبه ودواوينه، وتمتعت برقة دوي كلماته وأشعاره، استولى عليّ، سحرني، ونسيت عزلتي، وأصبحت حياتي مع القراءة هادئة، وأشدّ هدوءاً عما كانت عليه في أيام الحجر الأولى، لكنه للأسف ذات صباح طغت على هدوئي ترانيم شعائر بصدى قوي، استحوذت عليّ، وسرعان ما علمت منها أن المناضلة الرفيقة تيريز هلسا قد أغلقت جفونها المتعبة، هزمها المرض العضال. فُتحت كوات الليل المظلمة وألقت غلائل الموت السوداء عليها.

عاشت بأعمالها النضالية في بعض الخلود الزمني المثير، ناضلت وأُسرت وزُجت في زنازين الاحتلال أكثر من عقد من الزمن، لم يؤثر عليها ظلام السجن وبقيت على إيمانها بعدالة قضيتها، وبعد أن أفرج عنها

واصلت نضالها في قوة وعنفوان، وها هي الآن تفارقنا في نحيب صامت، ولا يسير في جنازتها سوى قلة قليلة من أقرب الناس إليها، بسبب الحجر المنزلي، ولو كانت الحياة طبيعية، لامتدّ صفّ مودعيها من مسقط رأسها عكا حتى مدينة أجدادها الكرك في جنوب الأردن التي توفيت فيها، وهم يحملون أكاليل من النرجس والدحنون ولباليب الزيتون التي تشع بنبض مودعيها.

دفنت بدون مواكبة شعبية تليق بها وبسجل نضالها وسنوات أسرها الطويلة في سجون الاحتلال المظلمة، رحلت عنّا بهدوء في وقت كانت فيه الكورونا تزداد حدة وشراسة، ترمي أثقالها في كلّ مكان وتعبر المحيطات وتبني أعشاشها في أعالي جبال الأنديس وأمواج الأمازون حتى آخر نقطة في المعمورة، شكلت لنفسها شباكًا خاصة بها، وغدت بعض المدن رماداً وهشيمًا، هكذا خطفت فحوى الحياة وأغلق الناس بسببها أبواب بيوتهم، عزلوا أنفسهم ومُنعوا من الاتصال بأحد.

وأنا مثلهم أسير جدران بيتي أحسّ بوحشة تسطو على وعيي، وأمامي ليل طويل لا أستطيع تحمله إلا بالقراءة. وهأنذا أعود ثانية إلى جلال الدين الرومي، أغوص في ديوان «المثنوي»، أحبس أنفاسي وأرى سلطان العارفين بثوبه الأبيض وغطاء رأسه الصوفي الأبيض الطويل بين القوافي والسطور، وهو يرقص رقصة المولوية التي ابتدعها إبان حياته، أحسّ به وهو يندمج في مشاعر الصفاء الروحية على أنغام الناي، استولى عليّ في دورانه حول نفسه، يزداد وضوحًا في شبكة إيماءات على أوراق ديوانه

الممتد أمامي، يبقى على هذا الحال مدة طويلة في سياق فضاءات مترعة بالأحلام، وألاحظه وهو يتخلص من معالم الوجود الأرضي ويصعد إلى عالم أزلي آخر، في تلك اللحظة حدقت في عينيه الرماديتين المغرورقتين بدموع الفرح لتخلصه من أعباء الحياة، وهكذا ساعدني ثانية أنْ أخفّف عن نفسي ثقل مجريات الحجر الإلزامي، وأن أغرق في بحر من الرؤى المتشعبة.

تمرّ الأيام والليالي الطوال، ورغم ما أسمعه من أخبار خطيرة عن الهزائم التي تلحق بالناس من جراء انتشار الكورونا أحسّ الآن أنها ستُهزم كما هزم الإنسان المعاصر عشرات الفيروسات الخبيثة التي ظهرت من قبل، هكذا أقنعت نفسي، وكلّما كانت تعود لي بعض الأفكار التشاؤمية في غور ظلام الليل، وتثير في نفسي قدرا خافتا من الاضطراب أعود ثانية إلى ديوان «المثنوي»، وتتعاقب الساعات مع ناي المولوية المتخيل، ينساب صوته إلى أذنيّ، أسمعه دون انقطاع في ألحان عذبة الإيقاع.

بعد ظهر يوم وكانت يدي ما تزال ممسكة بالقلم، أكتب عما تتوق إليه نفسي، رنّ هاتفي وسمعت على الطرف الآخر صوت صديقي «مارفن جونر» من كندا قال لي بكلمات مؤثرة «ثمة خيط عميق يجمع الكورونا الحالية بالأوبئة التي زرعها المستعمر الأوروبي في صدور أجدادي من سكان أمريكا الأصليين». تحدث مطولاً عن وحشية الرجل الأبيض، وعن تحركات الأجرام السماوية العديدة التي توزع الآلام والمحن على بني البشر.

انتهى الحديث مع صديقي «مارفن» مع دوي صفارة الإنذار، نظرت من النافذة وشعرت بالهدوء يعم عمان، في لحظة تجمعت فيها أشعة الشمس في بؤرة واحدة قبل المغيب، رجعت إلى ديوان «المثنوي» وأحسست أنّ مشعل الأمل ما زال وضاء يبشر ببعث يوم جديد ما بعد الكورونا تُرسم فيه الابتسامات على الوجوه من جديد.

إنّه الأمل الذي يطلب الرومي من قارئه أنْ لا يتخلى عنه في وقت الشدائد، لأنه سيحنو عليه دوماً ويحمله إلى ضفة الأمن والسلامة مهما جرى الوقت وطال الزمن.

14 تشرين الثاني 2020

مقتنياتي التراثية...

استعادة الذكريات لمحاصرة شبح «كورونا»

بدأ اهتمامي بجمع المقتنيات التراثية منذ طفولتي الباكرة، بتشجيع من والدي الذي تشكل شغفه بها في عشرينات القرن الماضي، وقد ورثت عنه بعد رحيله مجموعة ضاعفتها مع مرور الأيام، وأصبح لديّ في الوقت الراهن مجموعة كبيرة من المقتنيات التراثية المشغولة من الخشب والزجاج والفخار والفضة والنحاس بالإضافة إلى طبعات صحف أولى ومخطوطات أصلية ومسكوكات نقود قديمة وقطع من السجاد العجمي والحلي التقليدية والمكاحل والزنانير والملابس التقليدية المطرزة على نمط قرى أهل بلدي التي طرزتها الجدات في زمن مضى.

يعود عمر مقتنياتي إلى مئات السنين، وأحدثها اشتراها والدي قبل النكبة من حيفا وقد ورثتها عنه، تحمل كلّها دلالات عربية وعجمية تُظهر نبضاً إبداعياً يتشاكل فيه خيال مبدعيها من الصناع المهرة، ما زالت حتى الآن تحتفظ بوهجها، كأنها صُنعت بالأمس، استطاعت أن تتحمل تغيرات السنين الطويلة التي مرت عليها، لا تغفو أبداً، وأتحامل على نفسي دوماً لإزالة ما يعلق عليها من غبار، ألمسها بعناية فائقة حتى لا تتأثر من خشونة يديّ لأنها بالنسبة لي كائنات حية تتأوه إذا أصابها مكروه، أغني لها في صوت أجشّ خالٍ من النغم، وأقص عليها أجمل القصص التي عشتها

معها على مدار أيام طويلة منذ أيام يفاعتي المبكرة حتى أيام شيخوختي التي أعيشها في زمني الراهن على مقربة من الهزيع الأخير من العمر.

عندما أجلس وحدي في صالة عرض مقتنياتي في بيتي، أنظر إليها لساعات بعيني الضيقتين، أدنو منها وأرتشف منها كؤوس شراب الفرح الذي ينقلني إلى زمن مضى، يتدفق منه مجرى لا ينتهي من الذكريات، تُسمعني دقات أجراسها بدء استعراض دورة واسعة من الذكريات، وأبدأ بتذكر قصة كل قطعة منها على شكل مشاهد ملونة كأنها مرسومة بفرشاة فنان ماهر تتكرر أمامي بين أذرع جدران عالية مبسوطة على اتساع المكان، أشعر وأنا أنظر إليها بشعور رائع لا يوصف كأنني أصعد معها فوق أردنة الغيوم وتحوطني رعاية خاصة لأنني معها، وهكذا تتعاقب المشاهد وألتقط منها بعض المعلومات المتعلقة بها كمكان شرائها واسم بائعها وما أجريته معه من أحاديث في شؤون الفنون والدنيا، أرى كل قطعة ملفعة بمعلومات كثيرة تظهر في صور ملونة تتماوج أمامي أقلبها بكل مضامينها، أسترخي أمامها وأسمع صخباً مدوياً ينبعث منها يذكرني بقديم أيامي، أطلقُ لها العنان وأدفعها لتصطف أمامي، أكشف عن خباياها وأضعها فوق أكتاف عريشة دائمة الاخضرار تتدلى منها قطوف عنب جاهزة للقطف في كل المواسم.

كلما أرى مقتنياتي أضرب على وتر حيفا مسقط رأسي المكان الأثير على نفسي، أراها تمتد أمامي، وأرى الطفل الذي كنت أنا ملصقاً كفي بكف والدي وأسير معه في بطء في شوارع حيفا، كنت أقف معه طويلاً في

سوق الأتتيكا نتجول فيه ويشتري فقط من صديقه «أبو أنطون» الذي كان يُعرف من خلال ببغاء كان يضعها فوق كتفه تردد كلامه وإذا أزعجها تنقره برأسه الأصلع، أتذكره كلما أرى بين مقتنياتي مصباح الإضاءة بالكاز الذي قرأت على ضوئه منذ الصف الأول الابتدائي، ما زال متألقاً في بيتي بين مصابيح أخرى كثيرة مصنوعة مثله من مادة الأبولين، لكنه يبقى الأفضل بينها لأنه يذكرني بكتاب راس روس للمربي خليل السكاكيني المقرر على تلاميذ الأول الابتدائي في كل مدارس فلسطين، أسمع أصوات التلاميذ في مدرستي مدرسة البرج وهم يرددون راس روس، أنصت بفرح وفي أحيان أغفو لبعض الوقت وأرخي ذقني على صدري.

بين مشاهد المقتنيات أسمع في رقة صوت والدي وأراه وهو يقلب اللوكس الذي اشتراه من طبريا قبل أن أولد، أنظر إليه بشيء من المتعة الجارفة، وأتذكر أماسي حيفا التي كان والدي يشعله فيها ويضيء الساحة المجاورة لبيتنا في أول شارع الناصرة، أستذكر أماسي صاخبة كان يتحدث فيها والدي عن أخطاء القيادات الفلسطينية المتحجرة، ويردد صديقه رشيد الإدريسي أهداف عصبة التحرر الوطني، تلاحقني أحاديث تلك الأماسي كلما أحدق في اللوكس، أزحف إليه بقدمين متعثرتين وأضع أمامي أول عدد لجريدة الاتحاد وأرى والدي أمامي وهو يبتسم بفرح زائد عندما أقول له إنني أكتب في كبري على صفحاتها، أشعر أن انفعالاته تموج بموجات هادئة ويبدو تارة ساكناً ثم أكتشف أن تياراً قوياً يجري في داخله يعيده إلى شاطئ حيفا قريباً من أمواج العزيزية، يقترب

منها ويقدم عروضـاً مبتكرة للسباحة على طريقته، ويلاحق بضع نـوارس كانت قريبة منه ثم ابتعدت عنه حملتها الريح صعوداً إلى أعلى فوق الأمواج المتكسرة على الشاطئ.

كلّ قطعة من مقتنياتي يرد على ذاكرتي بمشاهدها المثيرة أعيد دومـاً كل ما هدأ منها وسكن، وها أنا أقف الآن أمام الفونغراف المنتصب ببوقه الطويل في الزاوية الغربية من قاعة العرض في بيتي، يتجسد في مشهد خاص به يثيرني، يرجعني إلى طفولتي أرى نفسي بجانب والدي وكفي لا تفارق كفه، أتذكر في هذا المشهد يوم دخلنا محل بوتاجي الشهير في حيفا، وأسمع الآن صدى كلمات البائع وهو يتحدث عن الفونوغرافات التي لديه كانت كلماته تخرج من أطراف شفتيه الجافتين، وكان والدي يستمع له ويحاول الكشف عن خفايا هذه الآلة الساحرة، أما أنا فما زال يثيرني من هذه الآلة علامتها المحددة بصورة كلب مرسوم عليها. وتحته بضع كلمات باللغة الإنجليزية تعني أنه صوت سيده.

اشترى والدي الفونوغراف الذي أحتفظ به حتى الآن، واشترى معه عدة اسطوانات مشهورة شعرت وقتها بفرح عندما وصل الفونوغراف إلى بيتنا، كنت أمسك على عواطفي في شفتي اللتين كانتا في تناوب تعض إحداهما الأخرى، لكنني بعدها عبرت عن فرحي بكلمات معدودة أعجبت والدي عندما سمعنا صوت أغنية شهيرة للفنان المصري سيد درويش «الحلوة دي» كان يطرب لها والدي كثيراً ويهتز طربوشه فوق رأسه وهو يحرك جسمه على إيقاعها يمنة ويسرة، وكنت أنا أشعر بسعادة

عندما أسمع كلمة «كوكوكوكو» ثم أسأله ببراءة الصغار «هل الأسطى عطيه هو جارنا «أبو أحمد» فيرد علي وهو يربت على رأسي: «لا يا ولدي إنه صنايعي من عمال أهل الإسكندرية».

قطع كثيرة تذكرني بوالدي وطفولتي الباكرة، أشعر وكأنّني أعيش أيام كبري في حضانتها؛ تفرحني وتبكيني وتملي عليّ خيالاً ثرياً يعيدني إلى ماضي أيامي في حيفا، عندما كنت أمشي متعثراً على درج عجلون في كلّ صباح في طريقي من بيتي في وادي الصليب إلى مدرستي مدرسة البرج التي ما زالت تتربع فوق تلة البرج حتى الآن، وما زالت أبوابها مغلقة تنتظر رجوع طلابها.

الذكريات تلسعني كالإبر، وتجعلني أحلق بجناحين طويلين في أماكن كثيرة زرتها من قبل واشتريت منها مقتنياتي، أقف الآن وأنظر حولي وأرى الصندوق الدمشقي الخشبي المطرز بصفوف من صدف مرمرة النادرة، أجده يعيدني إلى سوق الحريقة المحاذي لسوق الحميدية في دمشق، وأتخيل صورة «أبو أحمد اللحام» الذي ابتعت منه الصندوق، وهو يغمر رأسه بقبعة مطعمة بخيوط من القصب، ويقول لي: «أوصيك فيه خيراً لأنه ينتمي لأسرة عاشت في دمشق قبل أربعة قرون ولم يبق منها سوى هذا الصندوق الخشبي المثقل بذكريات أجيالها المتعاقبة».

أومأت برأسي في بطء وقلت له:

«أعدك أن أحافظ عليه وكأن ذوائب صدفه مغلفة بكتل ماسية».

أدرك أنّ الخيال لا حدود له ولكن ما قاله لي بائع الصندوق خارج نطاق الخيال لأنني سمعته منه وصوته ما يزال يدوي في أذنيّ، وكلما أسمعه يحثني على سماع صوت دمشقي آخر جاره في سوق الحريقة اسمه «عبد المجيد عوض» اشتريت منه طقم شمعدان بلوري أحمر اللون، كلماته التي قالها لي عندما استلمت الطقم فيها عاطفة بإحساس فائض بالتقدير للعائلة الدمشقية التي اقتنته من قبل عندما كانت دمشق مدينة صغيرة في بداية العهد العثماني خالية من الكهرباء.

كلما أراه أمامي أتخيل تلك الأسرة الدمشقية التي اقتنته من قبلي، يجري بي الوقت بطيئـًا معها وأحس أن العمر لا يعني شيئًا بدون الذكريات، التي تكتحل بحكايا كثيرة تتناثر في كلّ الاتجاهات وتغدو أفقـًا متوهجـًا بالعديد من الأشخاص، أراهم حولي أحسّ بهم وهم يقلبون بأيديهم طقم الشمعدان البلوري ويرقصون حوله لأنه ما زلت أحفظه في أمان، رغم التغيرات التي أغارت عليه من تعاقب الأيام.

بعد طقم الشمعدان البلوري، أتجه نحو النملية الدمشقية التي اشتريتها من محل على مقربة من قصر العظم الأثري، ألمس فيها دبيب ذكريات تأتيني كالرياح الجامحة تكشف عن وجه الشخص الذي ابتعت منه النملية، التمعت الكلمات بين شفتيه عندما قال لي أنه تلحمي من آل قطان، يحلم بالعودة إلى مدينته رغم عتمة الدروب المحصنة بالإغلاق، كان يحدثني وهو يغلف النملية بورق مقوى ليسهل حملها، وها أنا أسمع

كلماته من جديد الآن كأنه معي وتذكرني النملية ببعض مقاطع ذكريات منسية تكشف الغطاء عنها وتفيض بصور ممزوجة بخشب النملية.

من دمشق أنتقل في شطحاتي الخيالية إلى بغداد وألمس نرجيلة منتصبة في إحدى زوايا بيتي مسبوكة من الفضة الخاصة بكل أجزائها، وقد ابتعتها من عبد الرسول الجمالي، أتذكر الآن ما قاله لي عندما باعها بكلمات تشع بالعاطفة، بيّن بها أنها من بقايا جدّ والده الأكبر، أخذتها منه بعد أن غلفها بأحجية من العواطف، وها أنا الآن أحدق بصورته وأتذكر دمعة سقطت على خده عندما خرجت بها من بيته الكائن في حي المنصور.

وها أنا الآن أسمع صدى صوته من جديد، على إيقاع حشرجة الماء المحشو بالنرجيلة، أضبط تجهيزاتها حسب رغبته وأراه أمامي وهو يقلب جمرها بيديه المرتجفتين ويسند بهما لحظة الحضور، يجلس أمامي وقد أدار لي وجهه وأخذ يكسو المكان بابتسامة عريضة استلها من أعماقه، وبدا لي أنه يشعر بالسعادة لمحافظتي على النرجيلة الفضية التي تعاقبت عليها أدغال الأزمنة.

أحاول الآن أن أركز فكري على مجموعة من المكاحل ابتعتها من القاهرة، أقف أمامها ويقف معي صاحبها القديم مجدي أبو الدهب، قلبها بيده ثم بدأ بالتجول بين بقية مقتنياتي، وفي لحظة وقف أمام كردان يمني عليه عشر حبات كبيرة من الفيروز، لمسه وهو يبتسم ثم اتجه إلى زاوية وتوقف أمام سيف من الفضة ابتعته منه قبل سنوات طويلة، نظر إليّ بعينين دامعتين، ثم قال لي:

«سيوف العرب في زمننا الراهن لا تُجرد من أغمادها إلا عندما توجه للأقرباء فقط».

قلت له:

«وإذا وُجهت للغرباء تتحول إلى خشب».

أريد أن ألفت نظر القارئ بأنه يصعب إرضائي من الذكريات المتعلقة بمقتنياتي، لأنها تبعدني عن شبح الشيخوخة الذي أحس به في زمني الراهن وهو يدق أبوابي ويفرض عليّ السير في طرق متعرجة تمتد حولي من كل الجهات، وتشرئب بنواصيها إلى أعلى كأغصان الأشجار الممتدة على اتساع جبل الكرمل.

بالرجوع إلى الذكريات أتخلص من حمم الشيخوخة بعض الوقت وأتجول في أمكنة كثيرة هنا وهناك لها علاقة بمقتنياتي، وها أنا أجد نفسي الآن في أصفهان التي تسمى بنصف الدنيا، وأجد أمامي صديقي حسين كاظمي الذي ابتعت منه عدة قطع من السجاد العجمي الفاخر أهمها سجادة اسمها شجرة الحياة، تمنى لي لحظة شرائها أن تتفرع فروعي مثلها وتنتشر جذوري كجذورها في أرض أجدادي.

من أصفهان أصل إلى شيراز، أراها ممتدّة أمامي على نسيج سجادة شيرازية، عليها صورة الشاعر حافظ الشيرازي أمد يدي له وأنتزعه من نسيج الخيوط الصوفية المحوكة بإتقان، أرى على قبعته قطعة عقيق تضفي عليه توهجاً زائداً، أصافحه وأسمعه يدندن أبيات شعر له منسوجة على سجادتي يقول فيها:

قلبي يروحُ من يديْ أهلَ الوفا فِرارا
سرّيْ سيغدو ذائعـًا بين الملا جِهارا
وقد كسرْتُ مَركبي يا ريحُ هُبي فعسى
وجــــأه الحبيــبِ أن أرى وأبلغَ المــزارا

أوقـدت أبياتـه عـدة قناديـل شـيرازية مـن مقتنيـاتي، تراقصـت فتائلهـا بهـالات ضـوئية مـن غيـر رمـاد، أبهـره الضـوء، وفي لحظـة صـفق بيديـه وخرجت من نسيج السجادة راقصة تتمايل حوله كأرجوحة تتطاير في كـل الجهـات، وهـو يـدور حولهـا وبيـده كـأس شـراب شـيرازي يضـيف إلـى الرقص نكهة خاصة.

تتطـاير حـولي الـذكريات وهـا هـي تفـتح ألبومـات نقـودي القديمـة، وتنقلني إلى سهول قرية سبسطية التاريخية العامرة بأعمدة رومانية وقناطر ومبانٍ تاريخيـة، التـي كنـت أزور فيهـا عمتـي مـريم وأخـرج مـع أحفادهـا لنفتش تحت الأعمدة عن النقود القديمة التي داعبت يـديَّ لأول مـرة ومـا زلت أحتفظ بها وأقلبها بين الحين والحين، أراها بعيني المثقلتين وأشـعر وكأنني أخرجتها من مخابئها تحت الأرض قبل أيام قليلة.

عندما أستحضر ذكريات النقود القديمـة في خيـالي لا بـدّ لـي أنْ أتـذكر الرجل السوداني الطيب عبد الرحمن مكـي تـاجر الأنتيكـا المعـروف في أم درمـان، لأنـه أهـداني ثـلاث قطـع ضـربت في عهـد الإمـام المهـدي، وقـد أخـبرني أنهـا مـن القطـع النـادرة، ورفـض أن أدفـع أي قيمـة لهـا بشـرط أن

أحملها معي عندما أعود إلى حيفا وأن أثبتها في لوحة على جدران بيتي عندما أسترجعه بعد طول غياب.

أزيح ستائر الزمن من حولي وأتمشى من جديد في شارع الشهيد ديدوش مراد في مدينة الجزائر وألتقي فيه بتاجر مقتنيات تراثية اسمه آيت علي ابتعت منه عدة قطع نقود قديمة وحلى بدوية من الفضة من صنع مناطق القبائل التي تعيش فوق قباب الجبال العالية، أراه هنا معي في بيتي يقلب القطع التي اشتريتها منه، وأشعر بسعادة وأنا أرى صورته المتخيلة، وصورة شخص آخر من مدينة الدار البيضاء المغربية وهو يزاحمه ويُذكرني بالدرهم المغربي النادر الذي أهداه لي مع مجموعة من الخواتم القديمة.

فردتُها أمامه واقترب مني ثم استدعى اللحظات الأولى التي تعرفت فيها عليه في الدار البيضاء، ردّد ترانيم أعادتني إلى تلك اللحظات، وعدنا معـًا للتجول في مدينته حتى وصلنا سوق الحبوس للتحف التذكارية، وعلى حين غرة سألني عن مزهرية فخارية ابتعتها من ذلك السوق، أشرت له إلى مكانها في بيتي وفرح كثيراً لوجوده حتى الآن لأنها قديمة تحمل في نقوشها أثقال مئات السنين.

الذكريات لا تطلق سراحي بل تشد وثاقها عليّ وتنقلني إلى شارع الزيتونة في تونس العاصمة، أقف أمام رجب الأخضر الذي أرى دومـًا صورته على خنجر ضخم ابتعته منه مرت عليه السنون بمتواليات طويلة، تركت أثرها على عشر حبات ضخمة من المرجان والفيروز، أقف أمامه

في بيتي وأشد جذعي أمامه وأراه دومـاً أطـول مني وأشـرد بعينيّ بعيـداً، وأهيئ نفسي لحديث طويل مع رجب عـن المقتنيـات الجديـدة في محلـه، يحـدثني عـن جوانبهـا المخفيـة ويجعلنـي أمـر في كـوابيس أشبه مـا تكـون بكوابيس كافكا.

تخيلاتي عن مقتنيـاتي لا تنتهـي، توغـل دومـاً في ثنايـا وعيـي وأفـك بهـا وثاقي من ضغوط الشيخوخة اليومية خاصة في أيـام الجائحـة اللعينـة التـي تغلق فيها الأبواب وتزداد العتمة في كل مكان، في مثل هذه الظـروف أزداد قربـاً من مقتنياتي وأشعر أنني أعود ثانية إلى ذلـك الشـخص الـذي كنتـه في مقتبل العمر، لا يحسّ ببدايات دروب الحياة ولا نهاياتها الحتميـة، أسـرح في أحلامي وأمرح بجذل طفولي، أمرّ عـبر عشـرات الأبـواب، ولا أرغـب بالتعرف على مخارج لها، أريد أن أبقى على هذا الحال كأنني لا أمتُّ إلى الواقع بأي صلة، وفي لحظة أفيق من جديد على صوت أغنية أحبها والدي للفنان سـيد درويـش مـا زالـت أسـطوانتها في بيتـي يدغـدغها الفونـوغراف بإبرته بين وقت وآخر، ويُخرج منها كلمـات ومقـاطع نغميـة تخفـف عنـي حُرقة الكورونا.

21 شباط 2021

الفصل السادس

مختارات أخرى

الفنان محمد بكري: المتشائل بين المسرح والرواية

أسعدني الحظ مؤخراً وشاهدت المتشائل رائعة إميل حبيبي في عمل موندرامي متميز في عمان، بقيت على امتداد ساعتين مشدوداً أمام الفنان الفلسطيني الكبير ذي المواهب الإبداعية المتعددة محمد بكري، وهو يعرض بمفرده مشاهد موندرامية متميزة عرضها لأول مرة في عام 1986، وما زال يعرضها بنفس الحماس والتألق حتى الآن كما قدمها في عرضه الأول، وما زال يحافظ على تأثيره الكبير على جمهور المشاهدين، يُبهرهم ويثير فيهم فيضاً من المشاعر الدفينة نحو بيوتهم وقراهم ومدنهم داخل فلسطين، ونحو تداعيات النكبة التي أورثتهم حُزناً مزمناً.

تمكن الفنان محمد بكري على امتداد ما يزيد عن ربع قرن من استشعار الهمّ الفلسطيني بإحساس عميق، من خلال الغوص في عمق مفردات نص رواية المتشائل الساخرة، بلغة جميلة لفظاً ومعنى، وبتلوين جذاب في الصوت، يرفع من مستوى أدائِه صوتياً في تعبيره عن جراح شعبه بلكنة مؤلمة، ويزيد من قدرته الفنية على تجسيد دواخل أحداث مليئة بالصدمات والنكسات على اتساع فترة زمنية طويلة، يتحسّس مواضع آلامها وأحزانها بتفاصيلها المختلفة بمؤثرات عاطفية ووجدانية، يبثها إلى جمهوره بأسلوب ساحر مثير في مشاهد إبداعية متتابعة يمتزج

فيها الضحك بالبكاء والحزن، والجد بالهزل، والتفاؤل بالتشاؤم، يعكس بها باقتدار كبير مضمون نص «كوميديا سوداء» يخاطب جميع الحواس، وتطول بها قامته كفنان موهوب أكثر وأكثر مع تأدية تلك المشاهد من «المتشائل» بتألق دائم على خشبة المسرح في عروضه المتكررة على امتداد أعوام طويلة.

عُرضت المسرحية في عمان في قاعة فندق، غير مخصصة للأنشطة المسرحية، ولا تتعامل مع دلالات ومؤثرات بصرية وضوئية وديكور وملابس وغيرها من التنويعات الأخرى التي يتمسك بها المسرح التقليدي، اشتملت القاعة على سرير بسيط وضع بعناية أمام الجمهور، يشبه السرير الذي يظهر دوما في عروض المسرحية (ويرمز إلى أسرة مستشفيات المجانين)... اكتظت القاعة بجمهور كبير، نساء ورجال وشباب من مختلف الأعمار، كان الكل بانتظار بدء العرض، بانتظار سماع الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل، وسماع تفاصيل أحداث بؤس حكاية شعبه على امتداد سنوات الشتات الطويلة، التي ابتدأت بنحس النكبة اللعينة والهزيمة، وما تلاها من نحوس أخرى وهزائم متواصلة، ما زالت تحلّ بشعبه في الزمن الراهن.

في الوقت المحدّد، دخل محمد بكري من الباب الرئيسي للقاعة وهو يرتدي بدلة مهترئة قديمة، ويحمل «مكنسة» طويلة يقبض عليها بيديه، اخترق الصفوف باتجاه مقدمة القاعة حيث يوجد السرير البسيط، واصل السير ببطء وهو يغني لجمهوره بصوته الجهوري أغنية من التراث الشعبي

عمت فلسطين وبلاد الشام فيما مضى، من كلماتها: «حيد عن الجيش يا غبيشي، قبل الحناطير ما يطلوا / ماحيّد عن الجيش لويش وَاللي يعادي غبيشي يا ذله».

تحمس الجمهور لظهوره، وفجأة ردّد الجميع معه نفس الأغنية بصوت عالٍ، وعندما وصل إلى مقدمة القاعة، توقف عن الغناء... جال بعينيه على أرجاء المكان، ثم وجه نظره نحو سيدة كانت تجلس في الصف الأول، حياها ببضع كلمات مسموعة وقدمها للجمهور بأعلى صوته باحترام واضح قائلاً: «معنا الدكتورة راوية إميل حبيبي». سرعان ما صفّق الحضور تعبيراً عن تقديرهم لوجودها بينهم في نفس المكان، بما يوحي ويعبر عن التقدير المعنوي الكبير لوالدها مؤلف رواية «المتشائل» الشهيرة الأديب الكبير الراحل إميل حبيبي.

بأداء صوتي متميز بدأ بكري في سرد دواخل «الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل» اتسع فعله التمثيلي من أقصى يسار القاعة إلى أقصى يمينها، بحضوره وقدرته الفنية جعل منها خشبة مسرح واسعة، رغم أنها غير مناسبة للعروض المسرحية، وتمكن باقتدار أن يجسد شخصية «سعيد أبو النحس المتشائل» في أداءٍ قلّ مثيله عبّر به عن امتلاكه قدرة سحرية في الإلقاء والحركة والتعبير والإحساس بالصدق في تقديم الشخصية، وفي اختراق قلوب الجمهور بامتياز، حتى وفي إشراك الجمهور معه في أدائه، وجعله جزءًا من المشاهد المعروضة، من خلال الحديث مع بعض الحضور، ودعوة أكثر من سيدة للرقص معه على أنغام

موسيقية هادئة معبرة تتلاءم مع سياق العرض، كما وأشرك الجميع معه في ترديد عدة أغانٍ تتلاءم مع حكايا المسرحية المجبولة بمرارة الشتات والنفي والانكسار والقهر وبؤس الهزائم.

نجح الفنان القدير محمد بكري بأدائه الرائع أن يتحكم بحركاته وصوته وجسمه ويتألق بآفاق جميلة طيلة عرض مشاهده المونودرامية، تمكن بجدارة من خطف إعجاب الحضور بعرضه المتميز، كما نجح في همساته وكلماته ورقصه وأغانيه في خلط التفاؤل بالتشاؤم، والبكاء بالضحك بانفعالات كبيرة، وتمكن من تثبيت المكان في سياق مقاطع كثيرة ردّد فيها حيفا وعكا والطنطورة والبروة وقرى ومدن فلسطينية أخرى غيرها، وشدّد فيها على حتمية البقاء والصمود في الداخل الفلسطيني رغم القهر والقمع والمصادرة.

تدور المسرحية حول رواية الأديب الراحل الكبير إميل حبيبي الموسومة «الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل» التي احتلت الترتيب السادس في تصنيف اتحاد الكتاب العرب لأفضل مئة رواية عربية، وهي رواية ساخرة تم اختيار اسمها من دمج لفظي المتشائم والمتفائل فنتج المتشائل، وتعبر عن انقسام شخصية الفلسطيني الذي بقي في بلده بعد النكبة تحت حكم الدولة المحتلة، بين الحفاظ على هويته الفلسطينية العربية، وبين إثبات الولاء للدولة المحتلة، اتقاء لشرّ السلطات ومخبريها إبان فترة الحكم العسكري.

تتكون رواية المتشائل من ثلاثة كتب تؤرخ للمراحل الأساسية في تاريخ القضية الفلسطينية من عام 1948 حتى عام 1974، يحمل الكتاب الأول اسم يُعاد وهي فتاة حيفاوية تمثل المرحلة السابقة للنكبة، ويحمل الكتاب الثاني اسم باقية وهي طنطورية تمثل روح الصمود والمقاومة والتشبث بالأرض والهوية في وجه محاولات الاقتلاع والترحيل بعد النكبة، حتى وقوع بقية الأرض الفلسطينية في الأسر مع هزيمة 1967، ويحمل الكتاب الثالث اسم يُعاد الثانية، التي تجسد المرحلة الجديدة من الوعي الفلسطيني التي تبلورت بعد هزيمة 1967، وانطلاق العمل الفدائي، ويرمز اسمها للعودة. وأما سعيد المتشائل في الرواية فإنه يرمز إلى الفلسطيني الذي لم يهاجر وبقي في وطنه بعد النكبة.

يظهر سعيد في الكتاب الأول وهو يبحث عن التكيف ويتلمس الأمن والأمان، ويعبر عن استعداده لتقديم التنازلات التي تطلبها منه الدولة المحتلة، ثم يظهر في الكتاب الثاني أسير ازدواجية غريبة، في وقت حمل فيه ابنه السلاح ولاذ بالفرار والاختباء بكهف بعيد، وينتهي الأمر بسعيد في الكتاب الثالث إلى الجلوس على قمة «خازوق» يرفض النزول عنه، ورغم تغيره إلا أنه لم يتمكن من النزول إلى الناس لمشاركتهم النضال، ولم يجد أمامه سوى الاستنجاد بكائن فضائي، استجاب له وحمله إلى حيث الجنون. وبهذا أكدت الرواية على سقوط صيغة ازدواجية الولاء في الأرض المحتلة، وعلى صعود صيغة الفداء من أجل الوطن.

تتسم الرواية بتراكيب نصية ذات قيمة بنائية متميزة غير متبعة من قبل في الأعمال الروائية، تمكن بها إميل حبيبي من تأسيس مقومات إبداعية جديدة تعتمد على استلهام التراث العربي والفلسطيني والأمثال والحكايات الشعبية، واستخدام جمالية فائقة للغة المتبعة، تتألق بها عبارات كثيرة يبتدعها المؤلف بسياقات توظيفية نصية في مجال السخرية والكوميديا السوداء بدفعات زاخرة بالمرارة والضحك والبكاء.

واللافت أن إميل حبيبي قد أعطى المرأة مكانة خاصة في روايته، شعر بكينونتها وإنسانيتها، وأظهرها فيها كحبيبة وزوجة وأم ومناضلة مقاومة للاحتلال، كما حَمل كتبه الثلاثة المكونة للرواية اسم امرأة: يُعاد وباقية ويَّعاد الثانية. ولأهمية هذه الأسماء في إطار أسرة الراحل إميل حبيبي، تحمل إحدى حفيداته اسم «يُعاد» وهي الابنة الكبرى لابنته الدكتورة راوية وزوجها الكاتب سميح غنادري، وتحمله كثيرات أيضاً من فتيات فلسطين، لأنه يُعبر عن مشاعر العودة، كما أطلق اسم يُعاد على فرقة الإنشاد الوطني التي تأسست في الجليل في سبعينيات القرن الماضي، وهذا يوحي ويعبر عن سطوة البعد المعنوي للرواية في الراهن المعيش.

4 أيار 2014

سيدة القصة القصيرة

القاصة الكندية أليس مونرو، اسم جديد أضيف مؤخرا إلى نادي الحائزين على جائزة نوبل للآداب، وانضم إلى لائحة النخبة من كبار الأدباء والشعراء أصحاب الملكات الأدبية الرفيعة، الذين بلغوا الذرى في مجال أعمالهم الإبداعية وفنونهم الأصيلة.

فوزها بالجائزة لعام 2013 وهي في الثانية والثمانين من عمرها، يأخذ طابعًا خاصـًا، لأنها أول مواطنة كندية تفوز بهذه الجائزة القيمة ماديـًا ومعنويـًا، والمرأة الثالثة عشرة التي تسجل اسمها في سجلها منذ استحداثها في عام 1901، كما أنها هي المرة الأولى منذ 112 عاما التي تمنح فيها الأكاديمية الملكية السويدية كاتبـًا تقتصر أعماله على القصة القصيرة، في زمن تحتل فيه الرواية مكانة عالية في الساحة الأدبية العالمية.

هكذا توجت مسيرتها الأدبية المميزة، وانضمت إلى أهم نساء العالم من الحائزات على جائزة نوبل للآداب، ممن تفتخر بهن الإنسانية جمعاء، اللاتي فتحن الطريق أمامها إلى أقصى أطراف المجد: سلمى ليجرلوف (أول امرأة فازت بجائزة نوبل للآداب في عام 1909) غراتسيا ديليدا، سيجريد أوندست، بيرل بوك، غبريالا ميسترال، نيلي زاكس، نادين جورديمر، توني موريسون، فيسلافا شيمبورسكا، ألفريدي يلينيك، دوريس ليسينغ، هيرتا مولر.

استحقت مونرو بجدارة الفوز بأهم جائزة عالمية، لأنها «أستاذة القصة القصيرة المعاصرة» حسب ما أعلنته الأكاديمية الملكية السويدية التي منحتها الجائزة، ولأنها أيضا حسب نفس الأكاديمية «أفضل من كتب القصة القصيرة في العصر الحديث... تتميز بمهارة في صياغة أفكار قصصها وآفاقها بأسلوب واضح دون افتعال، وواقعية نفسية... غالباً ما يوجد في نصوصها وصفٌ متداخلٌ لأحداث يومية لكنها حاسمة تضيء على إطار القصة وتبرز القضايا الوجودية بشفافية ورؤى واضحة»، ولأنها حسب ما يردّده النقاد عنها «تحمل أعمالها كمّاً من المعاني الإنسانية الصافية ذات الصلة الوثيقة بحب الناس البسطاء واحترامهم ومحاولة فهمهم» وإحساسها هذا بالناس وعلى وجه الخصوص بالنساء من حولها، ساعد على تقريب قصصها القصيرة من قلوب القراء وأحاسيسهم العميقة، وجعل نصوصها جلية واضحة أمام أعينهم، مما مكّنهم من تذوق نصوصها بحماس زائد، وبالتالي تقييمها على أسس سليمة.

تفتحت عينا أليس مونرو على الحياة بنفس مشرقة مع الكتابة، لم تكن علاقتها بالأدب منذ حداثتها عن طريق القراءة والكتابة فحسب، بل كانت إحساساً عميقاً مسيطراً على تصرفاتها وسلوكها ومعاملاتها مع الناس من حولها، وفي مثل هذه الأجواء المشحونة بالإثارة الدائمة، استطاعت أن تصل إلى مستوى كبير رائع في عالم الأدب، وتمكنت خلال نحو نصف

قـرن مـن إنجـاز سلسـلة مجموعـات قصصـية ذات قيمـة إبداعيـة متميـزة بجاذبية ساحرة وحسّ مرهف رقيق.

يتضح من أعمالها أن نصوصها تقوم على عملية بنائية مركبة تجمع في قالب ملموس ما بين تـدوين تصـورات متخيلـة غيـر مرئيـة في نطاق ضيق محدود، وإعادة خلق مشاهد الواقع بأبعاد معنوية ومادية للمكان بجماليـة فائقـة، يتجسـد فيهـا المكـان بمفهومـه الـواقعي المـادي، في إطـار شـبكة خطوط متوهجة لحركية الحياة البسيطة في الريف الكندي، مفعمة بدفقات مدلولات زاخرة بأحداث البيئة الريفية المحافظـة في منطقـة أونتـاريو التـي عاشت فيها مونرو طفولتها المبكرة، وبنسيج الحياة الإنسـانية وانفعـالات الإنسان الداخليـة (النسـاء غالبـاً)، وعلاقتـه بالأشـياء والفضـاء المحـيط، بدرجة عالية من التماهي بين الكائن والمكان.

تمدّد فضاء القصة القصيرة مبكرا على أوراق أليس مـونرو، اسـتوعبت القصـة القصـيرة كـلّ اهتماماتهـا، حاصـرتها بوطأتهـا وثقلهـا، وتمكنـت في مستهل حياتها من ممارسة الكتابـة النوعيـة المبدعـة، بقـدرة إغوائيـة عاليـة لجذب المتلقي القارئ، الباحث عن القصص المتميزة من حيـث الشـكل والمضمون، على الصعيدين الجمالي والبناء السـردي، وهكـذا تواصـلت إبـداعاتها الأدبيـة المميـزة في سلسـلة طويلـة مـن المجموعـات القصصـية تمكنت بها من احتلال مكانة متألقة بين كتاب القصة في بلدها كنـدا وعلـى مستوى العالم أجمع.

صدر لها حتى الآن أربع عشرة مجموعة قصصية محملة بأفكار ورؤى عديدة مستمدة من البيئة الريفية المحلية والثقافة الجماعية، نُسجت على منوال محكم الأوصال بمشاعر وأحاسيس إنسانية مباشرة، وصياغة لفظية منمّقة دون تكلّف، تتعادل فيها الجوانب الموضوعية والوجدانية، ويتسع محيط دوائر أحداثها التي يتحرك فيها أبطالها وشخوصها في مسارات متشعبة واضحة المعالم، وضمن تفاعلات وجدانية متلاحقة تكمل بعضها بعضاً.

من أهم مجموعاتها القصصية: «رقصة الظلال السعيدة» و«أسرار مكشوفة» و«الهروب» وهي أشهر مجموعاتها، ومن أعمالها المتميزة أيضاً: «سعادة زائدة» و«المشهد من كاسل روك» و«حبّ امرأة طيبة» و«من تظن نفسك» و«أقمار المشتري» و«عزيزتي الحياة» و«صديق شبابي» و«بعيداً من هنا». وقد ظهرت أعمالها كلّها باللغة الإنجليزية ضمن روائع الأدب العالمي، وترجمت إلى أربع عشرة لغة أجنبية، ولم يتم حتى كتابة هذه السطور ترجمة أي عمل لها إلى اللغة العربية.

نجحت مبكراً وهي في بداية مسيرتها من لفت أنظار النقاد إلى قدراتها الفنية وإمكاناتها الإبداعية عندما ظهرت قصتها الأولى «رقصة الظلال السعيدة» في عام 1950، وكانت وقتذاك طالبة في جامعة غربي أونتاريو، تعمل في وقت فراغها «كنادلة» وموظفة صغيرة في مكتبة، وهذه القصة كانت عنوان مجموعتها القصصية الأولى ألتي صدرت في العام 1968 وهي في السابعة والثلاثين، وقد انشغل النقاد بها كثيراً كإنجاز أدبي متميز،

وحظيت بنصيب وافر من التقدير أهّلها للحصول على «جائزة الحاكم العام» التي تعتبر أرقى جائزة أدبية في كندا، وقد فازت بهذه الجائزة عبر مسيرتها الادبية مرتين أيضا بعد فوزها الأول، كما فازت أيضاً بجائزة غيلر المرموقة، وجائزة الكومنولث.

ومع تواصل إنجازاتها الأدبية عبر مسيرتها الطويلة، بدفقات دفعتها دوما إلى الأمام، زاد حضورها الفعلي بين الأدباء المعاصرين، وزاد اهتمام النقاد بخبايا قصصها القصيرة، وتمكنت بفضل حسن تقييمهم لها، أن تحصد على مرّ السنين مجموعة كبيرة من الجوائز الكندية والبريطانية والدولية المهمة عن معظم مؤلفاتها بلغ عددها سبع عشرة جائزة، منها جائزة «مان بوكر» الدولية في عام 2009، التي أعطيت لها عن كامل أعمالها الإبداعية، وقد مكنتها هذه الجوائز من الحصول على المكان اللائق بها بين مجايليها من الأدباء على مستوى العالم أجمع.

هذا هو الذي يجعل أليس مونرو الأعمق أثراً في مجال القصة القصيرة، تتفوق في نتاجاتها الإبداعية على أسماء أدبية لامعة كثيرة في كندا والعالم، وترتفع الى القمة في نيلها جائزة نوبل، ويكفيها فخراً أن النقاد يشبهونها بالقاص الروسي الكبير أنطون تشيكوف، لقدرتها مثله على الغوص في عمق تفاصيل الحياة الإنسانية بدقة وبصيرة ثاقبة، ولقدرتها مثله على التجول في رحاب الفضاءات الرحبة المحيطة بحثاً عن المعاني الإنسانية، فقد تعودت على التجول في مساحة واسعة شاسعة من فضاءات منطقة هورون الواقعة في شمال غربي مقاطعة أونتاريو حيث مسقط

رأسها، تقبل فيها بنفسية متفتحة حية على كتابة نصوص قصصها القصيرة، تدمج مكونات الحياة الريفية الواقعية على أوراق صغيرة محدودة، تختزل فيها حمولة مجموعة كبيرة من المعاني والأفكار والصور المليئة بالحرارة والصدق عن الحياة والناس، تدمجها معًا بأسلوبها الأنيق، وتخلق منها قصة قصيرة بتفاصيل وجزيئات متناغمة.

ولا غرو أنّ كتابة القصة القصيرة من فنون الكتابة الإبداعية الصعبة، من حيث الشكل والمضمون، لأسباب كثيرة أجملها بمحدودية رحابة وعمق المساحة المحددة للنص، واتباع التعبير السريع في البناء السردي، وبدء السرد من بؤر مفصلية في وسط الأحداث بكل ما فيها من دلالات وإيحاءات ومعانٍ في سياق لغوي موجز.

وجدت «مونرو» القصة القصيرة في كلّ شيء حولها، عبرت في قصصها عن نفسية متفتحة حية تعشق الحياة، وتقبل عليها بحرارة وبساطة صادقة، ظلّت طيلة عمرها تخوض غمار الكتابة في حماس زائد، ببحث دائب عن خبايا أعماق النفس البشرية، لمعرفة ما يستقر داخلها من أحاسيس عميقة، تنقل بملء الصفاء ما تجده فيها إلى قرائها، تفسح المجال لهم للإمساك بخيط سحري رفيع يجعل قلوبهم مليئة بتأملات تنبض بأحلام كبيرة.

6 تشرين الثاني 2013

شباك غرفة نومي

تُضيء ذاكرتي بصور كثيرة من أيام الطفولة الباكرة، أجد واحدة منها بؤرة لاقطة لا تختفي أبداً، تتسرب في أعماقي وتستوطن ثنايا الذاكرة موشومة بكثير من الأحزان، تتصل بمرض شلل مفزع أصابني منذ ولادتي، أقعدني طيلة سنواتي الخمس الأولى، وبذل والدايَ تضحيات جسيمة طوال تلك السنوات، بمنحي الوقت الكافي عند الأطباء بالتنقل معي من طبيب إلى طبيب في مسقط رأسي حيفا وغيرها من المدن الأخرى.

مضت بي الحياة طيلة مرضي في حمى أب رؤوف وأم رؤوم، عشت معهما في بيتنا بشارع الناصرة على حافة مدخل حيفا الشرقي، كان سريري في غرفة نومي تحت شباك عالٍ في الجهة الشمالية من البيت، كنت أقضي أغلب وقتي مستلقياً على السرير، كان النظر من الشباك يرفع من آماد خيالاتي، أحلق من كوته في السماء أبعد وأبعد على امتداد مساحات واسعة شاسعة، كان يفتح أمام ناظري في الليل آفاقاً كثيرة تخترق زحمة النجوم، أجد فيها سعادة بالنظر إلى النجوم بكل ما فيها من غموض وعلامات استفهام... أحصيها نجمة نجمة، وأسميها بأسماء مني، وهذا أقصى ما كنت أفعله في تلك الأيام.

هكذا عشت طيلة سنواتي الخمس الأولى مقعداً لا أستطيع المشي واللعب مع الأطفال، لا أجد عزاء إلا في النظر إلى السماء من فتحة الشباك،

وفي سماع أصوات الأطفال وهم يلعبون في الساحة المتاخمة لمنزلي بألعاب متكررة ومسلّية كلّ يوم، كانت تأتيني أصواتهم بنغمة واحدة تتكرر عبر الشباك وتدفعني إلى التأثر العنيف بأوضاعي الصحية، وبعدم تدفق طاقة الحياة في عروقي كبقية الأطفال.

كان الشباك بالنسبة لي أشبه ما يكون بخيط سحري رفيع يربطني بالعالم المحيط، أتحسس به جوانب من الحياة الطبيعية، وأكثر ما كان يثيرني منه، أصوات ومفردات أطفال الجيران، خاصة في أشهر الإجازات المدرسية الصيفية حيث كانت أصواتهم العالية تزداد بشكل صارخ يوماً بعد يوم، يملأون بها الحارة من حولهم ضجيجاً وصخباً، كنت في تلك اللحظات أشعر بحالة من الحزن الزائد لأنني لا أستطيع مشاركتهم اللعب، وكيف لي أن أشاركهم وأنا من المقعدين أجر ساقيّ جراً، ولا أستطيع المشي.

ذات يوم تعاقد مستشفى حمزة في حيفا مع طبيب ألماني، خضعت لفترة علاج طويلة تحت إشرافه، دامت لعام كامل، ومن محاسن الصدف أن صحتي بدأت بالتحسن رويداً رويداً بعد انتهاء فترة العلاج، وما من كلمات تصف شعوري عندما بدأت المشي بشكل طبيعي مع الأيام، أخذت أخطو خطوات الأصحاء خطوة تلو أخرى، اتسعت خطواتي إلى دائرة أوسع من الخطوات، كشفت لي عن حقيقة كثير من المعاني الطبيعية الرحبة في حياة الأصحاء كنت أجهلها.

شفائي من المرض لم يُبعدني عن شباك غرفة نومي، استمر طغيانه على مجرى أيامي، واصلت منه النظر بالعين المجردة في الأماسي الصافية

للنجـوم والكواكـب والقمـر، ومشـاهدة انـبلاج الفجـر في كـلّ صـباح، وغروب الشمس عند الغسق.

ومع اشتداد أحداث عـام 48 أخـذت أتـابع مجريـات تلك الأحـداث الأليمة من نفس الشباك، بمـا فيهـا نـزوح سـكان الأحيـاء العربيـة القريبـة، وعندما سقطت حيفا في 22 نيسـان 1948، أغلقتـه بيـديّ، وبعـد لحظـات خرجت مع والديّ من بيتنا، احتبست أنفاسي وأنا ألقي آخر نظرة عليـه... ما زالت تلك اللحظة مسجلة في ذاكـرتي كـأحزن لحظـة في شريط العمـر، ارتطـم فيهـا وعيـي الطفـولي بحقـائق الشـتات المريـرة، فقـدت كـلّ شـيء حولي عندما اتجهت سيارة اللوري التي تقلني مـع أسـرتي بسـرعة خـارج شارع الناصرة، اندفعت مع قافلة شاحنات طويلة تنقل مئات النازحين إلى خارج حيفا.

فارقتُ حيفا وعمري عشر سنوات، كان ذلك في يوم مظلم تعذرت فيه الرؤيـا، رحلـت عنهـا قسـراً، وتلاشـت أيـام طفـولتي الهانئـة، تحجـرت أحلامـي وتراكمـت في نفسـي حالـة وجدانيـة مـؤثرة مـن مآسـي الهزيمـة ترسخت في ظل غربة باكرة لصبي صغير... هكـذا اكتشـفت مبكـراً جـراح بؤس الهزيمة.

ومرت السنون ثقيلة في منافي الشتات، وبعد مـا يزيـد عـن نصـف قـرن، تمكنت من زيارة حيفا لأول مرة بعد رحيلي عنهـا، تمكنـت مـن الوصـول إلـى بيتـي دون مسـاعدة مـن أحـد، دُرت ببصـري حولـه، انهـارت قـواي، فقدت وعيي للحظات، أفقت وعدت إلى ما اختزنته ذاكـرتي مـن لحظـات

قديمة أغلق فيها أبي باب بيتنا وقت الرحيل، حملتُ تلك اللحظات أعواماً طويلة في ذاكرتي، أغلقه عندما كنت في العاشرة من عمري، وها أنا أزوره وعمري يناهز الستين وما زال مغلقاً، حملته وشماً في عيني طيلة السنوات الماضية، وما زلت أحمل مفاتيحه معي في مسارات التيه أنى ذهبت.

غمرني الحزن عندما وجدته بيتاً للأشباح، كحال بيوت الأحياء العربية الأخرى، تهاوى منه طرف من جزئه الغربي، ونخرت السنون أحجار حيطانه، لا أثر فيه للحديقة، لا أشجار حوله ولا ورود ولا أغصان ملساء جديدة تبرعم مع بداية الربيع، ولا أحد في الجوار... كلّ البيوت مغلقة ومهجورة.

وقفت مطولاً أمام منزل أسرتي، طاردتني الذكريات... استرجعت ذكرى أيام مضت، وقفت أمام الجهة الشمالية من البيت، أمام شباك غرفة نومي، الذي منه أبصرت الدنيا... أوغلت في ذكرى أيام طفولتي الماضية في تلك اللحظة، مرّ شريط الذكريات أمام عينيّ... تذكرت ثلة من أبناء جيلي وهم يلهون أثناء مرضي في الساحة المجاورة ويسطرون على ترابها خطواتهم الأولى.

***

بعد ما يقرب من عشرين سنة من تلك الزيارة، زرتُ بيت أسرتي ثانية في يوم من أيام آذار عام 2014، توجهت نحوه من وادي النسناس برفقة صديقي الفنان عبد عابدي الذي يتسع مرسمه في شارع الجبل للوحات

كثيرة استوحاها من حيفا وتداعيات النكبة، توالت خطواتنا معــًا باتجاه شارع العراق ومن ثم شارع الناصرة، سرعان ما وصلنا عمارة أبو حوا، وبعدها بأمتار محدودة وصلنا بيت أسرتي، وجدنا بابه مفتوحـًا على مصراعيه... دخلته وغصة في القلب تًدميني، أعدت في تلك اللحظة تراكيب الأمس مترعـًا بكل ما مضى، لمحت آثار أقدام أمي، وشممت رائحة قهوتها، وتخيلت ملاعقها وصحونها ومغارف قدرها، وسمعت رنين صوتها مع انزلاق الصدى، حتى وشعرت بعد تلك السنين أنَّ رماد موقدها ما زال ساخنـًا.

أفقت من تخيلاتي على صوت صديقي عبد عابدي يخبرني من غرفة مجاورة عن انهيار جدارها من الجهة الشمالية، لحقت به ووجدته في غرفة نومي، وقفت أمام الجدار المهدوم، ثم تابعت النظر في كلّ أرجاء الغرفة، وفي لحظة وجدت «الضرفة» اليمنى من شباك غرفة نومي ملقاة على الأرض، نفس الشباك الذي يحمل في ثناياه لحظات مهمة من طفولتي ومن ذكريات وعيي الأول بالحياة.

حملت «ضرفة» الشباك بدون أدنى تردّد وخرجت مع صديقي باتجاه مرسمه، غلفهُ لي كما تُغلف أجمل لوحاته الفنية، وفي اليوم التالي حملتهُ معي إلى عمان، ومنها سأنقله عبر المحيط إلى مونتريال... سأبقيه معي كخيط سحري رفيع يربطني بمسقط رأسي حيفا، يُفعمني بالسكينة، ويجعل القلب مليئـًا بأمل العودة مهما طال الزمن.

8 تشرين الأول 2015

الفكر العقلاني عند العرب

ابن رشد أنموذجًا

الفكر العقلاني حسب تعريف لسان العرب لابن منظور، يستخدم مصطلحًا للتيارات الفكرية التي ترتكز على العقل والمنطق كمصدر للمعرفة، وقد ظهر هذا الخطاب العقلاني عند العرب مبكراً، واتسم بالجرأة والنضج، واتسع تأثيره في الحياة العربية الفكرية والفلسفية.

وأكبر دليل على ذلك، وجود منتوج فكري عقلاني في ثنايا الثقافة العربية، ظهر مبكراً قبل الفكر التنويري الحرّ الإنجليزي والألماني والفرنسي بعشرات القرون، خاصة في عصر المأمون الحقبة التي بلغت بها الخلافة العباسية أوجها، وأصبح الفكر المعتزلي العقلاني هو المذهب الرسمي للدولة.

ويمثل هذا المنتوج مجموعة من المفكرين الكبار ممن كانوا يبحثون بعقولهم عن الحقيقة بأسلوب واقعي، أخص بالذكر منهم، أبو العلاء المعري، والجاحظ، وابن رشد، والزمخشري وابن المقفع، وإخوان الصفا ورسائلهم، وأتباع المعتزلة الذين ساهموا في وضع طروحات فكرية متطورة؛ بالاعتماد على المنطق اليوناني لشرح القضايا العقدية الغيبية؛ وتقوم طروحاتها أيضًا على إعطاء أهمية كبرى لحرية الإنسان؛ والنظر إليه باعتباره غاية الوجود.

وللأسف الشديد واجه أصحاب هذا الفكر ردود فعل صاخبة، تعرضوا للتنكيل تارة، وللتعذيب تارة أخرى، ولاتهامات الكفر والمروق والزندقة في كثير من الحالات، ومنهم من قتل حرقاً ومُثل بجسده كما حصل مع ابن المقفع الذي أعطى الثقافة العربية عدة كتب أدبية خالدة.

وابن رشد فيلسوف تنويري، أعطى للعقل أولوية كبرى، انتقد فكر الغزالي وفكر مذهب الأشاعرة الجبري اللاعقلاني الذي ينفي مكانة العقل ويلغي دور وفعل الإنسان وحريته في رسم مسار حياته.

وعبر ابن رشد من خلال نقده لهذا المذهب عن إيمانه بالعقل بلا حدود، ودعا للانفتاح على كلّ مجالات المعرفة العالمية، وللأسف الشديد لم يعترف أبناء جلدته بآرائه التنويرية، واتهموه بالكفر والمروق وحرقوا كتبه، وتلقفتها الثقافة الأوروبية الناهضة، واهتمت بها واعترفت بصاحبها؛ وجعلته في مصاف مشاهير المفكرين في العالم أجمع؛ وقامت بربط فكره بمشاكل أوروبا الاجتماعية والفكرية، وبهذا ساهم فكره بإيجاد الحلول لها وتبديد ظلمات القرون الوسطى، المثقلة بمظاهر الجهل والخرافات التي كانت تسيطر على الدول الأوروبية، وقد دُرست كتبه في جامعة باريس وجامعات العصور الوسطى، وظلّ فكر مدرسته «المدرسة الرشدية» الفكر المهيمن في أوروبا حتى القرن السادس عشر الميلادي، وهي فترة امتدت طيلة أربعة قرون، كان فيها ابن رشد الفيلسوف الأهم دون منازع.

ومن مظاهر تقديره في الزمن الراهن اعتزاز إسبانيا به، وقد عبرت عن ذلك مدينته مدينة قرطبة على أرض الواقع بإقامة نصب تذكاري كبير له لتخليد ذكراه، وذلك في شارع يشقّ طريقه بجانب سور قرطبة التاريخي، على مقربة من المسجد الكبير؛ كما كرمته إسبانيا بتدريس فكره في مناهج تعليمها المقررة للمرحلة الثانوية، وإقامة مؤتمرات وندوات علمية للتعريف بفكره ورؤاه التنويرية الثاقبة.

ومن مظاهر تقديره إجماع عدد كبير من مشاهير المفكرين، بأنه يعود له الفضل في كلّ ما حققته البشرية في الزمن الراهن، من إنجازات في مجال ثقافة التعدد والاختلاف؛ لأنه انحاز مبكراً في فكره إلى التعدد والاختلاف؛ ودافع عن حقّ الاختلاف الذي يجعل من التأويل صلةً جامعةً بين البرهان والشريعة، كما يعود له الفضل أيضاً فيما حققته البشرية من إنجازات في مجال المساواة ما بين البشر؛ وفي مجال حقوق الإنسان؛ خاصة حق المعرفة والتعلم واكتساب اليقين.

لقد تقدمت أوروبا لأنها آمنت بأفكار ابن رشد العقلانية، وتأخرنا نحن العرب لأننا حرقنا كتبه، وآمنّا بأفكار مجموعة من أصحاب الأفكار الرجعية الظلامية، التي لا علاقة لها بالتقدم والتنوير والمنتوج الفكري الإنساني المعاصر.

ولهذا نواجه في واقعنا الراهن قضايا التطرف والإرهاب الفكري، وهيمنة الغيبيات واتجاهات كثيرة غير عقلية، تجعلنا أسرى حصون

الماضـي القديمـة، غيـر قـادرين علـى دخـول أبـواب الـزمن الحـديث، ومجاراة متطلبات الحياة المعاصرة.

إنّ الحلّ يكمن في مراجعة المسلمات والمطلقات، في إطار عملية نقد عقلانية للموروث التراثي السلفي، وعملية ربط بين فكر ابـن رشـد وبـين مشاكلنا الاجتماعيـة والفكريـة كمـا فعلـت أوروبـا قبـل عشـرات القـرون، علينا أن نحدد بموضوعية مجالات الاستفادة مـن فكـره في أيامنـا الراهنـة، ويقيني أن فكره العقلاني النقدي فيه الكثير مـن الحلـول لواقعنـا المـأزوم، المليء بصخب الفكر اللاعقلاني ونتائجـه الكارثيـة المـدمرة في كـلّ دولنـا العربية.

المطلوب هو اتباع منظومة ابن رشد الفكرية العقلانية المستنيرة، التي دعا فيها إلى تأويل النص عن طريق العقـل، وسـجل بهـذا موقفـاً متميـزاً ؛ مفاده أنه لا تعارض بين الـدين والفلسـفة، وإذا كـان مـن تعـارض ظـاهري يمكن حلّه بالتأويل.

24 أيار 2019

أمين معلوف يتأفف من كلمة الجذور

اطلعت على كتاب أمين معلوف المعنون «بدايات» عند صدوره باللغة العربية عن دار الفارابي عام 2004، وهو كتاب يعرض فيه مؤلفه سيرة جده، كاشفاً النقاب عن تفاصيل كثيرة يتبدى منها توجهات جده التنويرية وقدرته في قرض الشعر واهتمامه بتعليم المرأة في القرن التاسع عشر إبان الحقبة العثمانية، ورغم أهمية الكتاب وجدت أن عنوانه «بدايات» لا يُعبر عن مضمون نصه، وكان الأفضل استخدام كلمة «الجذور» التي يتبعها الكتاب في نصوص السير الذاتية، لكن المؤلف عبر بصريح العبارة في مستهل كتابه عن تأففه من هذه الكلمة التي لا تنسجم مع مفرداته اللغوية.

ولا بدّ أنْ أقرّ بدهشتي الشديدة من تبريره لعدم استخدام كلمة «الجذور» فقد صاغ رأيه في هذا الجانب بالكلمات التالية المسجلة بمباهاة في الصفحة11 من كتابه: «غيري قد يتحدث عن «الجذور»... تلك ليست مفرداتي، فأنا لا أحب كلمة «جذور»، وأقله صورتها. فالجذور تتوارى في التربة، تتلوى في الوحل، تنمو في الظلمات؛ تبقى الشجرة أسيرة، منذ ولادتها، وتغذيها لقاء ابتزاز: « لو تحررت، تموتين!»

ثم يضيف بنبرة خالية من الموضوعية: «ترضخ الأشجار لأنها بحاجة إلى جذورها بعكس البشر. إننا نتنفس النور، ونطمع بالسماء ومتى غُصنا في التربة، فلنتعفن. لا يصعد نسغ الأرض عبر أقدامنا إلى رأسنا، وأقدامنا

إنما تصلح للسير. لا تهمنا سوى الدروب، هي تُسيرنا من الفقر إلى الغنى أو إلى فقر آخر، من العبودية إلى الحرية أو إلى الموت العنيف. تعدنا، تحملنا، تقذفنا، ثم تتخلى عنا. فننفقُ، كما ولدنا، على حافة طريق لم نخترها أصلاً».

قرأت هذه الكلمات على ضوء نص أكثر اتساعـًا، ووجدتها لا تتناغم مع قيم الأرض الكلية المتعارف عليها بكل ما فيها من شجر وطين وحجر، ولا تنسجم مع حقائق الإنسان وجوهره في متواليات الزمان والمكان، بالمعنى الوجودي والفلسفي على السواء، حتى إنّه يخرج في كلماته عن القيم الإنسانية عند استخدام كلمة «ننفق» للتعبير عن موت البشر، لأنَّ هذه الكلمة تُستخدم بتقليد ثابت عن موت الحيوانات فقط، وحسب لسان العرب ينفق الحيوان نفوقـًا إذا مات لأنه يُشترى بالمال.

لم أعلق على هذه الأفكار الغريبة عندما قرأتها قبل عدة سنوات، لكنّني فوجئت قبل فترة قصيرة عندما كررتها صديقة على مسمعي في سياق حديثي عن تجربتي في البحث عن الجذور، واتضح من حديثها أنها تتفق مع أمين معلوف بعدم استخدامه كلمة الجذور كعتبة نصية على غلاف كتابه «بدايات».

وهذا هو الذي يدفعني في الوقت الحالي للكتابة عن كتاب قديم، لكي أبيّن رفضي لفكر مؤلفه عن الجذور، لأنّ جذور الأشجار الضاربة في عمق الأرض، من أهم الركائز التي يعتمد عليها وجود النوع الإنساني وبقاؤه، وتربة الأرض التي تحتضنها بوحلها وصخرها هي جزء لا يتجزأ

من حياة الإنسان، مطبوعة في أعماق وجدانه لها قيمها المادية والمعنوية، يستمد منها ما يساعده على مواصلة الحياة، وكل ما فيها ممزوج برفات كلّ الذين عاشوا قبلنا قبل آلاف السنين، أوصى بهم المعري بقوله «خفّف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد».

وبالنسبة لي فإنّ أرض بلدي فلسطين ممزوجة بأريج دماء الشهداء، وجذور أهلها المغروسة في أعماق ترابها هي بمثابة حبل سري يربط الفلسطيني بهويته الوطنيّة، إنّها رمز المقاومة والتشبث بالهوية، وقصائد الشاعر الكبير سميح القاسم علامات متميزة في هذا الجانب، اتخذ فيها الأرض بكل جذورها وأشجارها وصوانها رمزاً لمواصلة الصمود والبقاء في أرضنا المحتلة، وأمّا الوحل الذي يتأفف منه كاتب بدايات، فأنا أشمّ في وحل بلادي رائحة ممزوجة بعبق النرجس والدحنون والأقحوان، تُحرك مشاعري، وأتلمس فيها مشاهدَ موشومة بخطوط متماوجة من جذور بلادي.

ولهذا قمت بالبحث عن بعض الجذور الفلسطينية طوال أربع سنوات في مدن وقرى كثيرة في الداخل الفلسطيني وفي أرض الشتات، سبرت فيها أيام أسلاف رحلوا عن دنيانا، والتقيت برجال ونساء من نسلهم، عبروا لي عن اعتزازهم وفخرهم بجذورهم الضاربة في عمق الأرض، لاقيت الوجوه بالوجوه في صور كثيرة مزجتها في سطوري.

وتمكنت على أساس هذه اللقاءات من إصدار كتابي «حيفا... بُرقة البحث عن الجذور» بثلاثة أجزاء، صدر الجزء الأول منها عن دار

الفارابي، والجزء الثاني والثالث عن دار الآن ناشرون وموزعون، كما صدر الجزء الأول باللغة الإنجليزية عن دار إنر تشيلد برس في الولايات المتحدة (ترجمة الدكتور بسام أبو غزالة) وقد اختار مديرها الناشر الأمريكي وليم بيتر جونيور صورة لغلاف الكتاب عبارة عن طفل أسود صغير أشبه ما يكون بالطفل الفلسطيني حنظلة، تمتد جذوره عميقاً في عمق أعماق الأرض، تتوالى على اتساع المكان في بنية تركيبية تنمّ عن حقيقة تجذر الفلسطيني في أعماق أرضه.

دونت في أجزاء كتابي دلالات ومضامين مجبولة بفيض تفاصيل كثيرة عن جذور تمتد في أرض الآباء والاجداد، بكلّ ما في دواخلها من وجوه وأسماء وبيوت وأحداث، تعي اكتشاف الذات في مرآة المكان.

بالبحث عن الجذور التقيت بمجموعة كبيرة من أبناء وطني على امتداد أيام طويلة في حيفا، بُرقة، إكسال، الناصرة، عارة، عرعرة، شفا عمرو، عبلين، يانوح، الجديدة، دير حنا، كفر ياسيف، أبو أسنان، بيروت، الرباط، فاس، هيوستن، براغ، كالغري، ديترويت.

فتح لي الحوار معهم آفاقاً واسعة للبحث عن الجذور لي ولهم ولغيرهم، بما يساعد على تشكيل جوانب مهمة من الذاكرة الجمعية الفلسطينية الغائرة في عمق الزمان والمكان؛ كالشجرة الظليلة في تشكيل الهوية والانتساب إلى الوطن.

إضافة إلى تجربتي الشخصية التي تعبر عن اهتمامي بالجذور والبحث عنها، لا بدّ لي من الإشارة إلى وجود مئات الأعمال الروائية

التي اهتمت بالجذور والأرض على اتساع العالم، منها رواية الأرض لعبد الرحمن الشرقاوي، التي تدور حمولتها النصية حول جذور الفلاح المصري وتشبثه بأرضه بأوحالها وطينها وترعها وطرقها الترابية، وهناك أيضاً رواية «الأرض الطيبة» للروائية الأمريكية بيرل بك، التي كانت من أسباب حصولها على جائزة نوبل في الأدب عام 1938، وقد جسدت فيها حياة البسطاء في الصين خلال القرن التاسع عشر، وصفت حياتهم بدون رتوش وتنميق، وشَرعت عتبات نصها على عمق جذورهم الممتدة في شعاب طين وأوحال أرضهم الطيبة.

ولا أغفل هنا ذكر رواية «الجذور» للكاتب الأمريكي إليكس هيلي، التي ترجمت إلى 37 لغة، وبيع منها 50 مليون نسخة، روى فيها عن جذوره وحياة الرق والعبودية التي عاشها أهله وناسه من السود، وجسد ذلك في تدوين سيرة شخصية «كونتا كونتي» الذي عاش حياة بؤس وشقاء في حظائر الحيوانات، وقد تمّ تسجيلها في عمل تلفزيوني يعتبر من أهم الأعمال المأخوذة عن نص أدبي لقصة حقيقية.

وهناك أعمال أخرى كثيرة من عيون الأدب العالمي، لم يتأفف كتابها من الجذور والأوحال والطين كما فعل كاتب «بدايات»، كتبوا عنها في سياقات نصية متميزة، منحت أعمالهم خلوداً معنوياً وفنياً على مدى الأيام.

29 تموز 2017

الموسيقى حلالٌ حلال

هو موسيقي أحبّ الموسيقى منذ نعومة أظافره، درسها في معهد موسيقي معروف، صقل فيه موهبته وتعلّم العزف على آلات كثيرة: العود والكمان والقانون والأورج والبيانو على أيدي أساتذة كبار، بزغ نجمه بعد التخرج في مجال التلحين والتأليف الموسيقي، وعمل مع عدة فرق موسيقية معروفة، أوصلته إلى آفاق عديدة في مجال النجاح والشهرة.

تعرفت عليه مع بدء مسيرته الفنية، أعجبت بعزفه وقدراته الفنية المتعددة، وأعجبت به كفنّان إنساني النزعة، عميق الشعور طيب النفس، يعيش حياته بحسّ صادق مرهف، ويمتلئ وجدانه بالسلام والأمان وحبّ الناس، التقيت به في مناسبات كثيرة، لمست فيه رغبته الزائدة في فهم النفس البشرية، وقدرته على بذل المزيد من التضحيات اتجاه أسرته الصغيرة، اهتم برعاية والديه وإخوته الصغار، شاركهم حياتهم لحظة بلحظة، أغدق عليهم وساعدهم على إجراء تحولات نوعية مهمة تزايدت يوما بعد يوم في مسار حياتهم.

أعطته الشهرة مكانة مرموقة بين مجايليه، لم يهتم ببريقها الخاطف، ولم تُدخل إلى نفسه الغرور، بل زادته قربـًا من الناس خاصة البسطاء منهم، وزادته قدرة على مواصلة عمله بنشاط وحيوية ضمن رؤى منفتحة على الحداثة والتجديد، عبّر فيها تعبيرًا جيدًا عن طاقاته الإبداعية،

وساعده هذا على اتساع دائرة إنجازاته وإنشاء تجربة فنية متميزة، ساهمت في جعل اسمه من ألمع الأسماء يشار إليه بالبنان.

دارت الأيام وانقطعت صلتي به حين هاجرت إلى كندا، ولما التقيت به أخيرا في عمان في صبيحة أحد أيام الربيع الماضي، وجدته بشكل مختلف كليا عما اعتدت عليه من قبل، تغطي وجهه لحية طويلة تصل إلى نصف صدره، ويلبس جلبابًا قصيرًا فوق الكعبين، وعندما سألته عن الموسيقى، أجابني أنّها من عمل الشيطان «وأهل الموسيقى في ضلال مبين»، وبيّن لي أنّه لا نقاش في تحريم الموسيقى والغناء، وعلى المسلم التلقي والتسليم، وأضاف في سياق حديثه أنَّ الموسيقى والغناء وكلّ الأعمال الفنية على درجة عالية من الكفر، ولا بدّ من تطهير الساحة الفنية من الكفر، وتبديل حال الفنّ والفنانين بما يرضي الشرع الحنيف.

ما يدعو للمرارة هو أنّ هذا الفنان الكبير قد خضع لعملية غسل دماغ من قبل تيارات أصولية متشددة، أثروا عليه وخسر فنّه تحت تأثير أفكارهم الغريبة المصطنعة، وخرج من عالمه الحالم إلى عالم التطرف والعنف والإرهاب والمغالاة في كلّ شيء، لم يتمكن من المحافظة على محورية الأنا في سياق توجهاته الحياتية الجديدة، فانجرف كمجهول مسلوب التفكير والشعور غير قادر على التلاؤم مع العالم الواقعي وروح العصر.

دخلت معه بنقاش طويل بينت له فيه أنه لا توجد حجة ولا دليل مرجعي عند القائلين بتحريم الموسيقى والغناء، واعتمدت في قولي هذا

على مراجع تراثية معروفة كثيرة أكدت كلّها على عدم وجود نص صريح في الكتاب أو السنة ينص على تحريم الموسيقى والغناء، وبينتْ أن موضوع التحريم كان مثار خلاف كبير بين الفقهاء في مختلف العصور، ووجود الخلاف في موضوع مهم كالموسيقى يعني بصريح العبارة انه لا يوجد نص صريح لتحريمها.

وطرحت سؤالاً عليه، تُرى كيف يكون حال الناس بدون موسيقى وغناء، كيف يمكن الاستغناء عن الموسيقى، وهي غذاء للروح ومتعة للعقل والنفس والقلب والذوق، وعلاج لحالات نفسية كثيرة، بها تحرك المشاعر ويتم تجميل العالم المحيط وتعم البهجة والإقبال بفرح على الحياة؟

هذا السؤال استدعى تساؤلاً آخر وهو: هل اطلعت على كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني؟

أجابني بحدة: إنه فارسي من الرافضة.

فوجئت لجوابه، تمعنت وجهه مبتسمًا وقلت له: إنه من ذرية أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي، من علماء العرب الأجلاء، ألمّ بالأدب والشعر والسير والطب والموسيقى والرواية وحفظ الأغاني والأخبار، وكتابه «الأغاني» من أمّات الكتب العربية، إنه على حدّ تعبير ابن خلدون «ديوان العرب»، كتاب موسيقى وكتاب غناء وطرب.

ذكر في كتابه أهم المغنين والعازفين في صدر الإسلام والدولتين الأموية والعباسية... مئات من الأسماء مثل زرياب وإبراهيم الموصلي

وابنه إسحق ومعبد وابن جامع والكسائي ومتيم ودنانير وحبابة وعريب وعلوة وعليوة وعزة وعاتكة، وأسماء مغنين من «الخلفاء» أمثال يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد وعمر بن عبد العزيز والواثق بالله (أفضل من غنى بعزف العود) والمنتصر بالله والمعتز بالله والمعتمد على الله وغيرهم من أبنائهم وأحفادهم، وفيه ذكرٌ لآلات الطرب التي كانت مستعملة وشائعة في أزهى العصور الإسلامية مثل الأرغن الرومي والعود والناي والطبل والطنبور وغيرها.

وبينتُ له ما يذكره كتاب «الأغاني» على صفحات مجلداته المتلاحقة، من شواهد وقصص كثيرة لا تحصى عن المغنين والمغنيات والشعراء والأدباء، ومن تفاصيل سردية مسهبة عن سير وآثار وأخبار وأشعار وأغاني كثيرة، ومرويات تراثية فنية غنائية وموسيقية بديعة، متصلة بتاريخ العرب وخلفائهم ونخبهم الحاكمة، وفي مقدمتهم الخليفة العباسي هارون الرشيد الذي اهتم كثيرًا بمغنيه إبراهيم الموصلي، الذي كان أشهر المغنين والملحنين في زمانه، فقد رعاه وقربه منه في مجالسه وكانت له حظوة كبيرة لديه... أعطاه أول جائزة قدمها لما وُلي الخلافة، وعند موته أمر ابنه المأمون أن يصلي عليه.

قدمتُ له أمثلة موسيقية كثيرة ذات شفافية روحية من واقع «الأغاني»، تعكس حقيقة ترسخ الموسيقى في أعماق نفوس وعقول جدودنا منذ أقدم الأزمان، وبينت له أنّ أهم ما يمكننا تعلمه من هذا الكتاب، هو أن الموسيقى حلالٌ، حلالْ، لغة إنسانية يفهمها كلّ البشر، غنية بالمعاني

الجميلة، ترتضيها الفطرة الإنسانية السليمة، وكان العرب في الماضي من أكثر الناس فهما وإدراكـًا لها، ساهموا في تطويرها، وكان حصادهم خصبًا ثمينًا.

وبينت له في سياق هذه الكلمات أنّ للموسيقار والمطرب زرياب فضلَ تأسيس معهد للموسيقى في قرطبة في القرن التاسع الميلادي، يعتبر أول معهد أسس في العالم أجمع لتعليم علم الموسيقى والغناء وأساليبها وقواعدها، وله الفضل أيضا بابتداع الموشحات الأندلسية، وإضافة وترٍ خامسٍ إلى عوده.

مثال آخر ذكرته له في هذا السياق، يتعلق بالفارابي، الملقب بالمعلم الثاني بعد سقراط، فقد طور آلة القانون الموسيقية وألف كتابـًا بعنوان «كتاب الموسيقى الكبير» سجّل فيه أول وصف لآلة الربابة الموسيقية ذات الوتر الواحد والوترين المتساويين، كما وضع بعض المصطلحات الموسيقية وأسماء الأصوات التي لا تزال تستخدم في زمننا المعاصر، يظهر منها أنه أول من عرف صناعة الموسيقى ومصطلح الموسيقى، وأول من وضع أصول الهارمونية الحديثة قبل جان فيليب رامو بستة قرون، وأول من ثبت قواعد تصنيع الآلات الموسيقية قبل فيرديناند هيلمهولتس بتسعة قرون، وقد تُرجم كتابه إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر، واستطاع به تطوير الموسيقى العالمية.

للأسف لم يتجاوب مع الذي قلته له، أطبق شفتيه ولم ينطق بشيء، لبث برهة صامتـًا، ثم تحدث بكلمات متقطعة ادعى بها أنّ كتاب «الأغاني» باطل ومعلوماته التي حدثته عنها زائفة، لا تعبر عن حقيقة الحياة فيما مضى من

العصور، واستطرد بعد ذلك بترديد اتهامات وتشنيعات وفتاوى كثيرة ضدّ الموسيقى والغناء وضدّ الفارابي وزرياب تبدو أقرب إلى الخرافات منها إلى الحقيقة.

تأكد لي مما ردّده أنّ قوى الجمود الديني وحركات التعبئة الظلامية المتشددة قد تمكنت منه، أقنعته بصحة تفسيرات دينية خاصة بها تسعى من خلالها إلى فرض القيود على الحداثة العقلية والحريات الشخصية والثقافية والإبداعية، ورفض الموسيقى والأغاني والثقافة العصرية، وحتى نبذ التقانة الحديثة بتنوع أنماطها بما فيها الإنترنت.

إنّها دعوة تسعى إلى الدمار والتطرف ونبذ الحياة الإنسانية السليمة، أدت به إلى الضياع، سيطر البؤس المادي والمعنوي على حياته، وطاردته لقمة العيش، لم يجد مجالاً للعمل يكسب منه، لأنَّ قدراته العملية محصورة في مجال الموسيقى، وقد حُرمت عليه وأصبحت عديمة النفع.

هذا هو العقاب الصارم الذي فُرض عليه، أنْ يرى الحياة عابثة لا جدوى منها خالية من أيّ معنى، تدور حوله في دائرة ضيقة مظلمة، تكاد تكون مغلقة على التكفير والتجهيل والتجريم وترسيخ «ذهنية التحريم».

16 تشرين الأول 2016

فتاة الترومبورن

هذا العنوان ليس مني، إنه عنوان رواية للروائي التشيلي المشهور أنطونيو سكارميتا، قدم فيها آفاقاً رحبة مزدحمة بالمشاعر الإنسانية وبجوانب مهمة من تاريخ بلده في خمسينيات وستينيات القرن الماضي... أحداث سياسية ضخمة شهدتها تشيلي منها وصول الرئيس اليساري سلفادور الليندي إلى السلطة عام 1970.

لا أنوي هنا التحدث عن الرواية، لأنها برأيي أُشبعت بحثاً ونقداً وتحليلاً من قبل الكثيرين من الكتاب والنقاد على مدار السنوات الماضية... الذي يهمني هو الحديث عن عنوانها فقط، وتحديداً الكلمة الثانية الأجنبية من العنوان: «الترومبورن»... فقد توقفت عند هذه الكلمة طويلاً عندما قرأت الرواية لأول مرة قبل فترة طويلة من الزمن... تيقنت من صورة مثبتة على الغلاف بأنّها آلة نفخ نحاسية موسيقية، وعلمت من سياق الرواية أنَّ عازف هذه الآلة «يضع مبسم آلته بين شفتيه ويستطيع بالنفخ، وبمد سحابتها وإعادتها إخراج ألحانه منها نتيجة اهتزاز عمود هوائي داخل الأنبوب الصوتي».

تطرقت الرواية في أكثر من موقع إلى ذكر آلة «الترومبون» كآلة مهمة في موسيقى الجاز، واستحضر الروائي أنطونيو سكارميتا على لسان راويته أسماء مهمة برزت على مستوى العالم في مجال موسيقى الجاز مثل غلين

ميلر وأليفر كنج ولويس أرمسترونغ الذي أطلق اسمه على مطار نيو أورليانز خلال الاحتفال بمئوية ميلاده عام 2000، كما استحضر أيضا نادي الجاز المعروف في شارع مرثيد في مدينة سانتياغو.

كذلك تطرقت الرواية إلى آلة «الترومبون» بمناسبة انتخاب الليندي رئيساً للتشيلي... أثناء الاحتفال بهذا الحدث في منطقة ألاميدا بمدينة سانتياغو، بالقول: «مكبرات الصوت تعلن عن قدوم الليندي... باتشوكو ياكسيك هو الأطول والأعظم بين مؤيدي الرئيس المنتخب، يركض ساحباً ترمبونه إلى حيث تزدحم الرايات الخفاقة... توقف أمام السيارة التي تقل الليندي، يمدّ سحابة الترمبون ويعيدها وهو يعزف للجمهور بحركات جميلة لحن سننتصر».

باختصار أثارتني آلة «الترومبون» وموسيقى الجاز بسبب قراءتي لرواية أنطونيو سكارميتا... قبل قراءتي لها لم أسمع صوت تلك الآلة ولم أهتم بموسيقى الجاز أبدا، كنت أهتم بأنواع أخرى من الموسيقى كنت أظنها وحدها تدفئ القلوب وتقضي على وحشة الحياة.

حال قراءتي لرواية «فتاة الترومبون» أحسست برغبة شديدة تدفعني لسماع آلة «الترومبون» والتعرف على موسيقى الجاز... تذكرت أن الصديقة زينة النقيب تتردد بين الحين والحين على نادي معروف للجاز، أحد الأندية الشهيرة في مدينة مونتريال، طلبت منها عنوانه لكي أقوم بزيارته، وبكل لطف وكرم دعتني مع زوجتي لمرافقتها في أي وقت نرغب به لزيارة النادي... لبَّيْنا دعوتها في ذات مساء... التقينا بها عند تقاطع

شارعي ميزانيف وأولمير، كان برفقتها صديقنا المشترك التسعيني يوسف ضو الذي يحب موسيقى الجاز والرقص كثيرا ويُنشط قلبه الذي ناهز التسعين سنة بالموسيقى... تجعل الأنغام إحساسه بالحياة حلواً وعميقًا.

اتجهنا أربعتنا معا مشياً على الأقدام في شارع أولمير... أصوات الموسيقى كانت تتناهى إلينا من بعيد، تزداد شيئا فشيئا مع اقترابنا من النادي... كانت تبعثُ فيَّ انفعالاً مشابهًا لانفعال من يفتح عينيه لأوّل مرة على شيء جديد، لم يعرفه من قبل.

أول ما لاحظته عند دخولنا النادي، وجود آلات موسيقية كثيرة معلقة على الجدران، بجانبها عدة صفوف مليئة بصور لأسماء مشهورة من العازفين والمغنين، عُلقت كلّها بترتيب جميل... تنقلت بعيني بين تلك الآلات، وتوقفت أمام آلة «الترومبون»، وجدتها تتكون حسب المعلومات المدونة عنها «من ثلاثة أنابيب ينتهي طرف الأنبوب الأول بالجزء الذي ينتهي بمبسم يضعه العازف بين شفتيه وينفخ منه، بينما ينتهي الأنبوب الثالث المخروطي الشكل بما يشبه الجرس، ومثل كل الآلات النفخية يعتمد النغم وتغيره على قدرة العازف في النفخ وانزلاق الأنغام في الأنابيب النحاسية».

إلى جانب الآلات المعلقة على الجدران، استمتعت بالنظر إلى صور مجموعة من أهم العازفين والمغنين في عالم الجاز من السود... صور لويس أرمسترونغ وغلين ميلر وأليفر كينج ونيت كنج كول ومايلز ديفز

وبي بي كينج وسوني رولينجر وايلا فيتزجرالد ودينا واشنطون وري جارلس وغيرهم.

بعد أنْ أنهيت النظر إلى الآلات والصور المعلقة على الجدران، جاءت اللحظة الكبيرة، جلست مع زوجتي وزينة ويوسف حول طاولة قريبة من الفرقة الموسيقية الخاصة بالنادي... ثمانية عازفين يعزفون على آلات عديدة من بينها آلة «الترومبون»، معهم امرأة سمراء تغني بنشوة على إيقاع عزفهم، ترفع صوتها بانفعال عاصف وهي تردّد بأغنيتها اسم الزعيم الإفريقي الكبير مانديلا... تصفه كرجل عظيم له أهمية عالمية... تدفع كلماتها عنه إلى آفاق مزدحمة بالمشاعر والأفكار والأحزان والأحاسيس الإنسانية... أحزان السنين الطويلة التي عاشها منديلا في السجن، وأحزان شعبه الذين عاشوا في مجتمع ظالم كان ينظر إلى اللون الأسود نظرة اضطهاد... تجد المغنية في كلماتها عزاء لكل تاريخ بني جلدتها من السود... تردّدها على إيقاع عزف متواصل، تتنقل بين طبقات صوتها بسلاسة متماهية مع أنغام العزف والعازفين في أداء ساحر خلاب.

بعد انتهاء المغنية من وصلتها، طلبت منها زينة أن تنضم إلينا، استجابت لها في الحال لأنها على معرفة بها من قبل... انضمت لنا، قدمت نفسها باسم ميشيل من مدينة نيو أورليانز الأمريكية... عبرت لها عن سعادتي للتعرف على نادي الجاز، وسماع أغنيتها عن مانديلا الذي أكن له محبة خاصة لأنَّ شعبي الفلسطيني تحت الاحتلال يعيش نفس الظروف

التي عاشها السود في جنوب إفريقيا من قبل... حدثتها عن رواية «فتاة الترومبون» التي بسببها تعرفت على موسيقى الجاز.

بعثَ فيَّ حديثي عن الجاز انفعالاً واضحاً، وهذا هو الذي شجع ميشيل على التحدث بتوسع عن هذا الفن الجميل، بدأت حديثها عن اضطهاد الزنوج أيام العبودية، كان ينظر لهم الأمريكان على أنهم كالحيوانات يعملون في مزارع القطن صباح مساء... كانوا أثناء سَمرهم يرددون إيقاعاتٍ وألحانًا إفريقية صاخبة جلبها أجدادهم معهم من غرب إفريقيا... توارثوها جيلاً بعد جيل... هي الإرهاصات الأولى لموسيقى الجاز التي امتزجت مع صرخات عذاب العبودية والاضطهاد واعتمدت على الارتجال والعفوية... ومع إلغاء نظام الرق وانتهاء الحرب الأهلية الأمريكية، وجد العبيد الزنوج أنفسهم أحراراً، وأول ما اهتموا به تطوير الجاز في مدينة نيو أورليانز، ومع الزمن تمّ التقليل من الارتجال وتدوين الألحان بالنوتة، وامتزاج الألحان الإفريقية بالموسيقى الأوروبية، وظهور أنواع كثيرة من موسيقى الجاز.

تحدثَت عن انتشار موسيقى الجاز في العالم أجمع، وبينت أنها كانت أسلوبـاً هامـاً للتحريض والاحتجاج في فترة الستينيات من القرن الماضي مع تنامي الأفكار الاشتراكية واليسارية... ظهرت وقتذاك أغانٍ كثيرةٌ عن جيفارا وكاسترو، وأغاني مناهضة للحرب في فيتنام وضعها مجموعة من الموسيقيين الزنوج ممن رفضوا الانخراط في الجيش الأمريكي.

بهذه الكلمات عرفتني ميشيل على جوانب إنسانية مؤثرة في موسيقى الجاز نبعت من داخل الإنسان الإفريقي الأسود، تدعونا إلى احترام الإنسان، وعدم استصغار شأن أي كائن في هذا الوجود، مع نبذ كامل لكل أشكال الظلم والاضطهاد.

بعد تلك الأمسية أدركت أهمية موسيقى الجاز... قررت التردد على نادي الجاز في شارع أولمير... واصلت في أماسي كثيرة التعرف على مزيد من المعلومات عن موسيقى الجاز من ميشيل وغيرها من العازفين، خاصة عازف آلة «الترومبون» الذي كان عزفه شجياً مؤثراً يهزني من الأعماق.

بعد نحو شهر من تعرفي على نادي الجاز، انطلق مهرجان الجاز في مدينة مونتريال، علمت من معلوماته الرسمية أنه انطلق لأول مرة في عام 1979، ومنذ ذلك الحين أصبح حدثاً سنوياً من أكثر المهرجانات الترفيهية جماهيرية، يدوم لمدة عشرة أيام، ويستضيف أعداداً كبيرة من المغنين والفرق المشهورة من مختلف دول العالم... في العام الحالي اشترك في دورته الثالثة والثلاثين ثلاثة آلاف فنان، قدموا 350 عرضاً على مسارح الهواء الطلق، و150 عرضاً في الصالات المقفلة.

من حسن الطالع أنّني أسكن في وسط مدينة مونتريال على مقربة من المكان الذي يقام فيه المهرجان، مما يسهل عليَّ متابعة عروضه على امتداد كل أمسياته، أركب مع زوجتي مترو أنفاق الخط الأخضر، مجرد ثلاث محطات، ننزل بعدها في محطة ساحة الفنون، ندخل دهليزاً طويلاً

يمتد بخط مستقيم إلى أعلى، نصعده عبر أدراج متحركة، ونصل أخيراً إلى ساحة كبيرة تمتد ما بين شارعي ميزانيف وسانت كاترين... نتجول في مكان المهرجان، نلقي نظرة على مسارحه وبرامجه، نختار أحد المسارح، نجلس أمامه، ونُصغي لساعات طويلة إلى أنغام موسيقية ساحرة حتى منتصف الليل.

شعرت ذات مساء بسعادة لا توصف عندما اعتلت خشبة المسرح المغنية الشهيرة «نورا جونز» التي تعتبر مغنية الجاز الأكثر مبيعًا لألبوماتها في الوقت الحاضر... نَظَرَت إلى الجمهور المحتشد حول المسرح... عينان سوداوان تنظران إلى الناس برفق... حيّت الجمهور بكلمات معدودة، وانطلقت تغني بصوت عال... كانت تثير انفعال الناس أمامها، كانوا يرقصون بثيابهم الصيفية... يتمايلون بلطف على إيقاعات حالمة... يتمايلون بنشوة تملأ قلوبهم غبطة وفرحًا.

لموسيقى الجاز جاذبية خاصة، وتاريخ إنساني عريق، ولهذا حددت منظمة اليونيسكو التابعة للأمم المتحدة يوم 30 أبريل من كلّ عام يومًا عالميًّا لموسيقى الجاز، وذلك بعد ما يقرب من قرن ونصف القرن على ظهورها... دشنت اليونيسكو هذا اليوم العالمي بتاريخ 30 نيسان 2012، أقيم لأول مرة تحت شعار مقولة مارتن لوثر كنج «موسيقى الجاز تتكلم مدى الحياة» وأوضحت المنظمة أنَّ سبب اختيارها يومًا عالميًا خاصًا بموسيقى الجاز «لأنَّ هذه الموسيقى ترجع في جذورها إلى عهد الاستعباد،

ولأنها من أبرز الأصوات مناهضة لكل أشكال الاضطهاد، وضعها الزنوج وجعلوها مثالاً للتسامح والتعاون والارتجال والتفاهم».

وبيّنت مديرة اليونيسكو «إيرينا بوكوفا» في هذا الشأن «كانت موسيقى الجاز قوة دافعة للتحول الاجتماعي الإيجابي في كل مراحل تاريخها، بل إنها لا تزال كذلك حتى يومنا هذا... هي موسيقى الإبداع الذي لا حدود له، تمزج بين التأليف والارتجال وبين الموسيقى النظامية وغير النظامية، تجدد نفسها دومًا كلّما عُزفت».

وبيّنت أيضـًا «أنَّ العالم يحتفل بموسيقى الجاز من أجل تعزيز السلام والحوار بين الثقافات والتنوع واحترام حقوق الإنسان والكرامة الإنسانية، ومن أجل القضاء على التميز وتعزيز حرية التعبير والنهوض بالمساواة بين الجنسين وتدعيم دور الشباب من أجل تحقيق التغيير الاجتماعي».

هذه هي موسيقى الجاز التي تنساب على امتداد العالم كلّه، تتألق بتجدد دائم، وتأثير كبير على أنماط موسيقية أخرى في العالم أجمع، كلّما أسمعها أتذكر رواية «فتاة الترومبون»، وأتذكر هارييت بيتشر ستاو مؤلفة رواية «كوخ العم توم» التي دونت فيها تداعيات شرور ومحن الاضطهاد والعبودية واللامساواة ما بين البيض والسود... نفس التداعيات التي ساهمت في ظهور موسيقى الجاز، وبروز أصوات كثيرة متحمّسة ناهضت كلّ أشكال الاضطهاد والعبودية، وكل ما لا ترتضيه الفطرة الإنسانية السليمة.

13 أيلول 2012

هنا كانت قرية أجدادي هوشيلاجا

بعد أن هُجّرت من حيفا، تُهت في منافي الشتات التي أوصلتني إلى كندا الواقعة في أقصى المعمورة، بلاد بعيدة تترامى خلف المحيطات، هي البلد الثاني عالميًا من حيث المساحة الكلية، يتسع مداها وتتعاقب أراضيها المغطاة بالثلوج بلا نهاية في رحاب فضاء يمتد شمالًا في المحيط المتجمد الشمالي عند التقاء أطراف السماء بالمحيط.

اخترت مدينة مونتريال مقرًا لي في مهجري، عندما وصلتها أطلقت العنان لخيالي فتذكرت أبي وأمي وإخواني الذين توفوا قبل سنوات طويلة، تعالت أصواتهم مع لهيب تساؤلات كثيرة، رأيتهم في وضوح أمامي، اتسعت دائرة تخيلاتي وكدت أنهار وهم يلومونني لاختياري الهجرة إلى بلد في أقصى المعمورة، بدلًا من تمسكي بعجلة الحياة ببلدي بآلامها وويلاتها، شعرت كأنني وسط أمواج تتقاذفني في علوها وهبوطها وأن دوامة على وشك ابتلاعي، خجلت من نفسي، وأخفيت وجهي بملاءة وغصت في نوم عميق.

عندما أفقت من نومي شعرت بحيرة نفسية تخيم عليّ، تهت في بحر من الحجج لاختياري الهجرة البعيدة، أخضعت حياتي بنظرة فاحصة لكلّ ما دار فيها، جُلت بحرية في ثنايا طفولتي وشبابي، تلمست كلّ الظروف التي عشتها من قبل في كنف أسرتي، وكانت النار المطمورة في داخلي تهب

وتشتعل من جديد، لم أنجح في إبعاد الخوف عني من المجهول من المنافي الجديدة، شعرت في لحظة أنّ وجه والدي اختفى، وحاولت أنْ ألقي نظرة على نفسي كما لو أنني أنظر إلى شخص آخر، أردت الرجوع إلى الحقيقة والواقع، فتشت بزفرات متلاحقة عن مبرر لما أقوم به واضعًا راحتي على الجرح، شعرت في البدء بضوء خافت في نفسي يدلني على خيط رفيع من الأمل، ثم سرعان ما عدت ثانية إلى آلام كانت تتصاعد من داخلي تمزقني وتزيد من عذابي.

اتضح لي كيف يتخذ الإنسان قراراتٍ مهمةً في حياته دون تفكير واع، تُفرض عليه كما يفرض الموت على كلّ البشر، وهكذا تيقظت وفهمت أنّ هجرتي لم أدرسها دراسة متأنية، وأنها ستفرض عليّ أن أسير في أيامي القادمة في تيار غير مألوف، على امتداد طرق يختلط بعضها ببعض في بلاد غريبة، لن أستطيع الإفلات من براثنها، ستوصلني إلى أوضاع تثير القلق الدائم في داخلي بدلالات عميقة.

انتابني الضيق ممّا كان يشغل فكري، لزمت عدم التفكير بحالي بعض الوقت، ثم أسندت ذقني إلى حافة نافذة قريبة منّي، ونظرت في دهشة إلى بزوغ الفجر، كانت السماء صافية بلا غيوم تعكّرها وشعرت أنَّ الأنا القديمة انتهت وحلّت محلها الأنا المهاجرة الجديدة، وتراءى لي كيف تتصارع مع التيه والمجهول، في ممرات طويلة لم أعهدها من قبل تلتحم في تتابع بالزمن الآتي.

طفت في أفكاري كأنني في حلم، وفي لحظة أفقت واستبد بي الحماس عندما رأيت عن قرب نهر سان لوران الذي يضم مدينة مونتريال من كلّ أطرافها ويجعل منها جزيرة مضفرة بأجمل الحدائق، حدقت في النهر ووجدته على درجة من الجمال أكثر مما هو عليه في الصور، هالني منظر مياهه المتدفقة في أسراب من الأمواج، وتساءلت في داخلي، هل سيعمل النهر على تهدئتي ويخفّف الضيق الذي يتزايد في نفسي؟

في غمرة الهدوء الذي انتابني أول ما خطر على بالي تذكر مدينتي حيفا التي ولدت فيها، أخذت أهمس في داخلي بلهفة اسم بحرها الذي يشرق ويغرب حاملًا أمواجه لها، يُداعب أقدامها صباح مساء، في وقت تحمل الرياح الطيور من أعلى الكرمل، تضمها وتتجه إلى أعلى صوب السماء.

وبينما كنت على هذا الحال غارقًا في لجة من التأملات، قررت الخروج للتعرف على نهر سان لوران، وبعد فترة من الوقت وصلته ووجدته تحفة طبيعية يتجول الناس حوله، أجلتُ البصر حولي وأخذت أتجول معهم، وبعد فترة من الوقت، جلست على مقعد خشبي على طرف النهر، نظرت حولي ولاحظت أنني على مقربة من ميناء يفيض بشريط طويل من القوارب والسفن الصغيرة والكبيرة، أغرتني قرقرة الأمواج في مجراها السريع عند خروجها من الميناء وهي متجهة إلى وسط النهر، ترسم خطوطًا منبسطة على وجه الماء، وهي تترنح بخفة تحت نسيج حريري شفاف.

قبل منتصف الليل بقليل عدت أدراجي إلى شقتي، كان القمر يرسل ضوءه الحريري الرقراق فوق المدينة، وكانت رائحة الحياة تأتيني من أزقة قريبة، تطغى عليها حركات فتية وفتيات تعلو وتهبط على إيقاع ضحك وهمس وأغانٍ جميلة أيقظت في نفسي رغبة اللحاق بهم، لكنّني لا أنكر أنّني كلّما كنت أقترب من تحقيق تلك الرغبة، كنت أجد مبررًا للابتعاد عنها أكثر فأكثر، استجابة لصوت كان ينطلق من داخلي يقول لي صارخًا:

«لأي شيطان تريد أن تسلم نفسك».

لاحقًا أويت إلى فراشي وأغلقت جفوني بعد منتصف الليل.

في يومٍ تالٍ أفقت مُبكرًا قبل انقشاع الظلام، جلست في شرفة شقتي وأخذت بمتابعة قراءة كتاب عن المشكلة الزمنية، توقفت مطولًا عند الخروج من الواقعية المحسوسة في الزمن المعيش، نحو الزمن الماضي بأحداثه اليومية المتعاقبة، وجدت أنَّ الخيال الجامح وحده القادر على إلغاء عتمة الراهن، وفي الحال نحيت كتابي جانبًا، وشهدت انبلاج وهج متخيل يحيط بي، يجلي أنسجة الأمكنة، ثم اتجهت إلى ممرّ طويل لم أعهده من قبل، حثثت الخطى فيه دون توقف، وجرى بي الوقت مجتازًا ضفاف المألوف، ثم أخيرًا وجدت نفسي في وسط قرية من قرى سكان كندا الأصليين.

وقفت في طرف القرية، لزمت الصمت وانفجرت أساريري عندما رأيت جمعًا غفيرًا من الناس أمامي لاحظت زعيم القرية يجلس على

مرتفع عالٍ، يرتدي لباسه التقليدي، وغطاء شعر طويل بريش ملون، وحوله سكان القرية يصطفون بحلقات حوله على الأرض في الهواء الطلق، ينحنون له إجلالًا وتبجيلًا، اتسع مضمون الصورة أمامي ووجدت أنَّ النساء بأنوثتهن الزاخرة يجلسن بالصفوف الأولى، ثم يأتي خلفهن الرجال ومن ثم الأطفال.

في لحظة وقف زعيم القرية بقامته الفارعة، وردّد كلمات معدودة، كما ردّد سكان قريته بضع كلمات بعده ببهجة واضحة، ودون فهم منّي لكلماتهم شعرت أنهم بانتظار حدث ما، وبعد مضي بضع لحظات ظهر فارس يشق الطريق في حماس فوق حصانه، وخلفه مجموعة من الفرسان يحثّ كلّ منهم حصانه على المضي بسرعة، وقد اختلطت أصواتهم العالية بأصوات الخيول وهي تدكّ الأرض في قوة، وبينما أنا غارق في تأملاتي إذ بي أراهم يقفون أمام زعيم القرية ويضعون تحت أقدامه مئات الحيوانات البرية التي اصطادوها، وقف لتحيتهم، وعلا صوت الناس ومن ثم صدحت الموسيقى بإيقاع يعلو على وتائر متعددة، وتعلقت النساء بأعناق الفرسان تشبعهم تقبيلًا.

شعرت بوقع أقدامهم وهم يرقصون في دورات متتابعة تتردّد في مخيلتي وتؤكِّد لي أنّ التأمل بعمق قادر على تبديل الموازين الزمنية في قالب ملموس، ولهذا أعبر عن نفسي الآن بأنني منهم ألحظهم كلّهم أرى قسمات وجوههم في لوحة غائرة في عمق ذاكرتي، وأسمع صدى أصواتهم الغنائية ورنين ضحكهم يعلو في خط تصاعدي بين الحين والحين.

بقيت على هذا الحال فترة من الوقت، ثم عدت إلى واقعي في الزمن الراهن، توقفت عن التأمل ثم قفزت على قدمي بسرعة، جهزت نفسي للخروج وسرعان ما وصلت نهر سان لوران.

أستعيد ذكرى أهله القدماء.

قضيت وقتًا طويلًا من أيامي الأولى في مونتريال، وأنا أزور النهر، أسير على جانبه، وأستعيد ذكرى أهله القدماء مرات إثر مرات، كان السكون يعمّ المكان، ولا أسمع سوى وقع خطواتي، وعندما يحين وقت الراحة كنت أجلس على مقعد خشبي على طرف النهر، بقرب جسر طويل يمتد فوق أمواجه.

ذات يوم بينما كنت أجلس على نفس المقعد الخشبي، جاء أحدهم وجلس بجانبي، لم أعره انتباهًا، شغلت نفسي بالنظر إلى غمامة كانت تمرّ فوق الجسر المعلق أمامي، تستند تارة على بعض أطرافه ثم تبتعد عنه في سرعة فائقة، وتعود إليه ثانية كأنها تداعبه وترتخي لرغباته.

أخذ الشخص الجالس بجانبي يغني بكلمات لم أفهمها، وفي لحظة توقف عن الغناء ثم أخبرني أنه يغني بلغة أجداده من شعب الموهاك أصحاب النهر القدماء، عندما تم اكتشافهم أطلقوا عليهم اسم «الهنود الحمر» بمدلولات دونية واضحة، وبعد أن أباد المكتشف الأوروبي أجدادنا واحتل أرضنا أطلق على من بقي منّا اسم «السكان الأصليين»... حشرونا في محميات، لا نملك فيها سوى مساحة ضيقة من الأرض، وما زلنا نتخبط فيها في خضم حياتنا المغلقة.

بعدها قدم نفسه لي باسم مارفن جونر، قدّمت له اسمي ولمحات موجزة عن مأساة بلدي، التمعت عيناه قائلًا: «مأساتنا واحدة، ثمة ترابط وثيق ما بين الذي عاشه أجدادي في الماضي قبل إبادتهم، وما تعيشونه في الزمن الراهن من أيام عصيبة يسببها المحتل البغيض في فلسطين، ويدرك كلّ الذين تبقوا من شعبي حقيقة أيامكم المخضبة بالدماء».

تكررت لقاءاتي بمارفن وسرعان ما أصبحنا أصدقاء، عرفني على أماكن كثيرة في مونتريال، صعدت معه إلى قمة الجبل الملكي، كان يذكرني دومًا أنَّ كلَّ ذرة تراب في مونتريال من أملاكهم، وحتى الطيور التي كنا نسمعها وهي تزقزق فوق الأشجار من أملاكهم، وفي ليلة مقمرة كنّا نسير فيها في المدينة القديمة بيّن لي أن لمعان ضوء القمر وانعكاساته على اتساع المكان من أملاك أجداده، أفكاره هذه تعكس صلته الدائمة بمأساة شعبه، وتترك أثر ألم في أعماقه غير قابل للشفاء.

كنت أتقن السماع إليه، لأنَّني أحسّ بمأساته وأشعر بنفس شعوره اتجاه بلدي المحتل، المغموس بالآلام منذ سنوات طويلة، جاءه أناس غرباء من أمكنة كثيرة، حكّامهم يتقنون زراعة الموت في عجلة دائمة الدوران، يختالون في تغييرهم مسار كلّ شيء، ويضبطون وقتهم على سرقة الأرض والماء والسماء والهواء والشجر.

شدة انفعالي لأحوال بلدي تخنقني، وقلت مرارًا لصديقي مارفن: «مصائبنا واحدة». كنا نواصل الحديث دوما عن مصائبنا التي تتشابك خيوطها في مجالات كثيرة وتعبر في جوهرها عن ظلم الإنسان للإنسان.

كان يقول لي في جلساتنا: «أخشى أن يلقى شعبك في زماننا الراهن نفس مصير شعبي الذي لقيه في الزمن الماضي».

كنت أشعر دوما بأنه ينكأ جراحًا كثيرة في داخلي بمقارنته أحوال شعبينا، في دوامة الحياة القلقة التي نعيشها، وأنا أعيها وأتحدث عنها على الدوام ولا أحاول إخفاءها.

توالت اللقاءات مع مارفن وتوالت من خلاله الفرص التي أتاحت لي التعرف على أيام أجداده القديمة، وذات صباح يوم صيفي من أيام تموز، صعدت معه إلى أعلى الجبل الملكي، ثم هبطنا منه إلى سفحه الأيسر، وبعد فترة وجيزة توقفنا وقال لي رفيقي: «هنا كانت قرية أجدادي، «هوشيلاجا» التي دمرها المحتل وأقام محلّها مدينة مونتريال الحالية».

وضع أصابع يده اليمنى على جبهته كأنه استذكر أمرًا مهمًا، ثم طاف في مدارات من الحديث بيَّن فيها بأنّ أهلها كانوا يعيشون حياة قبلية جماعية تختفي فيها النزعة الفردية، يمارسون معًا أعمال الصيد وزراعة الذرة الصفراء وغيرها من المزروعات، وقطع الأخشاب وتجميع النسغ السكري من جذوع شجر القيقب، أي أنهم مارسوا نفس الأعمال التي مارسها أجداده في القرى الأخرى التي تناثرت عبر الزمن الماضي على امتداد نهر سان لوران.

عرفني مارفن على عدد من رفاقه، التقيت بهم كثيرًا ودخلت معهم في أحاديث طويلة حول مواضيع كثيرة، تدور حول المنافي والشتات والاقتلاع من الأرض والحرمان من الوطن، كما تجولت معهم على متن

قارب في نهر سان لوران من نبعه حتى مصبه في المحيط الأطلسي، وبيّنوا لي أنَّ أمواجه تحمل ظواهر بصمات أجدادهم، وسرّ حياتهم على امتداد عشرات الآلاف من السنين قبل مجيء المكتشف الأوروبي.

عرفوني على ألف جزيرة صغيرة متناثرة في النهر على مقربة من البحيرات الكبرى، التي سحرت المكتشف الفرنسي الأول «جاك كارتيه» الذي أحبّ أجدادهم وتعلم لغتهم وارتبط بزعيمهم «دوناكونا» برباط صداقة قوية، لأنه لم تكن لديه طموحات احتلالية، وكلّ ما كان يهمه اكتشاف أجزاء من العالم الجديد لم يصلها أوروبي قبله.

بعدها عرفوني على أهلهم في محمية «كانيساتاكي» القريبة من مونتريال، استضافوني في بيوتهم، نمت معهم وأكلت من أكلهم وعرفوني على طقوسهم وعاداتهم، وشعرت كأنني أعرفهم منذ أيام طويلة. وتقديرًا لعلاقتي معهم ألّفت رواية بعنوان «هوشيلاجا» صدرت عام 2020 عن الآن ناشرون وموزعون في عمّان، أهديتها لهم لأن أشرعتهم ترفرف فوق كل حرف من حروفي على امتداد سطور الرواية.

7 آب 2021

معروف الرصافي شاعر متصهين

اطلعت على كثير من المصادر للتعرف على الشاعر العراقي معروف الرصافي في الوقت الذي عمل فيه معلماً في مدينة القدس، وتوقفت عند مصدر يتصل بزيارة بلفور لفلسطين في الأول من نيسان عام 1925 للاشتراك في حفل افتتاح الجامعة العبرية في القدس، والمعروف تاريخياً أن فلسطين قاطعت زيارته، وأعربت عن استيائها الشديد من الزيارة والزائر. وكان من بين المدعوين الشاعر العراقي معروف الرصافي.

وتكمن المفارقة في حضور الرصافي للحفل وتقديمه قصيدة نظمها خصيصاً لتلك المناسبة جاء فيها ما يلي:

خطاب يهودا قد دعانا إلى الفكر   وذكَّرنَا ما نحن منه على ذُكر
ومجَّد ما للعُرب في الغرب من يدٍ   وما لبني العباس في الشرق من فخر
لدى محفِل في القدس بالقوم   تبَّوأه هربر صموئيل في الصدر
حنانَيْك يا هربر صموئيل كم لنا   على الدهر من حق مضاع ومن وِتْر
ولسنا كما قال الألى يُتهِموننا   نُعادي بني إسرال في السرّ والجهر
وكيف وهم أعمامنا وإليهم   يمتّ بإسماعيل قِدماً بنو فهر
وإني أرى العُربيَّ للعرب ينتمي   قريباً من العِبريّ يُنمى إلى العِبر
هما من ذوي القُربى وفي لغتَيْهما   دليل على صدق القرابة في النَجْر

لك الشكر حتى أملأ الأرض   وها أنا قبل القوم جئتك معلناً

التصهين في القصيدة بائن بوضوح بانثيالات ظهرت في أكثر من اتجاه، يُعلنه الشاعر علانية دون حرج أو خجل، وتظهر مخاطبته للمندوب السامي البريطاني بمعاني ودلالات متعددة مباشرة غير مبهمة، تعمد إلباسها إهاباً أرجعه إلى مسلمات دينية، وما يقترن بها من مشاعر «العمومة» التاريخية مع بني إسرائيل، في لحظة تصادم متعمد مع كل ثوابت المسلمات الوطنية.

يطغى على القصيدة عدم تقدير واضح لظروف الزمن الذي يحكُم أجواء القصيدة، بكل محمولاته الاستعمارية والاستيطانية وتصادمه مع التطلعات الوطنية الفلسطينية، صاغ فيها الرصافي شبكة تواصل بدرجة عالية من «العمالة» للآخر في زخم تداعيات الانتداب المتصهين، وقد عزّز التأكيد عليها في مطالب بيّن فيها رغبته بالتكامل مع الآخر ابن عمومته، وزيّن تلك المطالب عند إقفاله القصيدة بالمباهاة في تقديم الشكر الوفير بنبرة عالية إلى المندوب السامي البريطاني «هربرت صموئيل» مؤكداً له أنه يأتي إليه قبل قومه لتقديم الشكر إليه، ويعده بتشفير دلالي بأن أفواجاً مثله من بني قومه سوف يأتون من بعده أيضا لتقديم الشكر إليه.

ليس من شكّ في أنّ الرصافي قد أدار ظهره في قصيدته إلى الحركة الوطنية الفلسطينية بجلوسه إلى جانب بلفور وامتداحه المندوب السامي البريطاني «هربرت صموئيل»، وأدخل نفسه في تفاعل مباشر مع أعداء

الأمة ورواد المشروع الصهيوني، متجاوزاً في تصرفه فلسطين وشعبها وقضيته، ولا غرابة في هذا، لأنّ ملامح دلالية مرجعية كثيرة تؤكد على أنّه «عاش حياته الطويلة العريضة بانفلات واضح في السلوك والتصرف وغشيان الكثير من المحظورات، أخذ منه الاستهتار كلّ مأخذ، وأزال عن طريقه كلّ الممنوعات وأوغل في التنقيب عن الأسرار وتعرية الذات...». وهناك مصادر تذكرها الموسوعة الحرة، تؤكد على «اعتراف الرصافي مبكراً بماسونيته واستهتاره وممارسات كثيرة لا تقبلها أعراف المجتمعات الشرقية».

واجهت الحركة الوطنية الفلسطينية تصرف الرصافي برفض شديد، واعتبرت قصيدته معيبة بمعناها ومغزاها، تتماهى مع مخططات الصهيونية وسياسات الاحتلال البريطاني ومشاريعه الاستعمارية، خاصة وأنه ألقاها أمام «جيمس آرثر بلفور» صاحب التصريح المشؤوم الذي صدر عن الخارجية البريطانية في الثاني من تشرين الثاني – نوفمبر عام 1917، ووعد به إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وحرم الشعب الفلسطيني من حقوقه السياسية والقومية، وما تزال تداعياته في تفاعل دائم حتى الآن.

والآن أعود ثانية من حيث بدأت، وأجد في أحد المصادر معلومة مهمة ونادرة تتصل بقصيدة الرصافي، مفادها أن نجيب نصار صاحب جريدة الكرمل الحيفاوية، المناهض الأكبر للسياسات الصهيونية والبريطانية في أيامه، قد توجه بطلب خاص من المحامي والشاعر الحيفاوي وديع

البستاني، طالباً منه الرد الشافي على قصيدة الرصافي، فكتب القصيدة التالية المذكورة في ديوانه فلسطينيات:

خطاب (يهودا) أم عِجابٌ من السحرِ — وقولُ الرّصافي أم كِذابٌ من الشعرِ
قريضُك من درّ الكلام فرائدٌ — وأنت ببحر الشعر أعلمُ بالدُّرِّ
ولكن هذا البحرَ بحرُ سياسةٍ — إذا مُدّ فيه الحقُ آذنَ بالجزرِ
أجل عابرُ الأردن كان ابن عمِنا — ولكننا نرتاب في عابِر البحرِ
أيهجر أوروبا ليبنيَ بيتهُ — على قبّة ما بين مهديَ والقبر
أأنت «صموئيل» سموأل أمسنا — وهل ساد أرض الانكتار بنو فهر؟
أنؤمن في «بلفور» بعد محمد — وعيسى وموسى والوزير من الوزر
وربك، لا، فالوحي في الذكر صادق — يكذب ما في الطرس من لوثة الفكر
فما بالهم تاهوا وضلوا وضللوا — وما فقهوا ما جاء في حكمة السفر
دار النشر والحشر حولها — تقومون في يوم القيامة والحشر

أكد البستاني في نسيج قصيدته على انشغاله بقضايا تمتزج مع أحاسيس وطنية عارمة، تكشف عن ملامح التصادم مع قوى الانتداب والاستيطان الصهيوني المبكر في فلسطين، والانحياز الكامل إلى الشعب الفلسطيني وتطلعاته الوطنية، مما أعطى عمله الإبداعي خلوداً معنوياً وفنياً.

وفي المقابل أدى الوقوف ضدّ فلسطين وشعبها وأرضها، في قصيدة تخلو من أي قيمة فنية أو إبداعية، إلى منح ناظمها معروف الرصافي مكانة تليق به في مزابل التاريخ.

14 نيسان 2014

السيرة الذاتية للمؤلف

- **شاعر وكاتب، وُلد في حيفا عام 1938.**
- **درس في مدرسة البرج الحيفاويّة حتى الصف الثالث الابتدائيّ، ثمّ هُجِّر مع عائلته عام 1948 إلى بُرقة، التي تنحدر منها عائلته، وبعد أن أنهى دراسته الثانويّة، درس في جامعتَي «سراييفو» و«بلغراد» في يوغوسلافيا، وحصل في عام 1967 على درجة الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة بلغراد.**
- **عمل مستشارًا اقتصاديًّا في ثلاث مؤسسات إقليميّة عربيّة، تتّخذ من الكويت مقرًّا لها:**
  - منظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول (أوابك)، 1972- 1988.
  - المؤسسة العربية لضمان الاستثمار، 1989- 1993.
  - الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، 1994- 2006.
- **تفرغ في عام 2006 للأعمال الأدبية.**
- **انتُخب في عام 1990 رئيسًا للاتحاد العام للاقتصاديّين الفلسطينيّين- فرع الكويت.**

- **عضـو رابطـة الكتّـاب الأردنيّـين، والاتحـاد العـام للكتّـاب والأدبـاء العرب.**
- **يعمــل مــديرًا للمركــز الكنــديّ لدراســات الشــرق الأوســط في مونتريال/ كندا، ورئيسًا للصالون الثقـافيّ الأندلسـيّ في مونتريـال التـابع للمركز نفسه.**
- **صـدر لـه سـتة وأربعـون كتابًـا، منهـا سـتة وعشـرون في مجـال الشـعر والأدب، منها:**

– «الوجه الآخر للأيام» ديوان شعر، صدرت طبعته الأولى عن دار فضـاءات للنشـر والتوزيـع، والصـالون الثقـافيّ الأندلسـيّ، عمّـان 2011، وصدرت طبعته الثانية عـن الصـالون الثقـافيّ الأندلسـيّ، ودار الوسام العربيّ وجمعيّة شروق الثقافيّة، ولاية باتنة، الجزائر 2016.

– «رؤى وتأملات» نصوص نثريّة، دار فضـاءات للنشـر والتوزيـع، والصالون الثقافيّ الأندلسيّ، عمّان 2012.

– «حيفا.. بُرقـة- البحـث عـن الجـذور» (الجـزء الأول)، صـدرت طبعته الأولى عن دار الفارابي، بيروت 2013، وطبعته الثانية عن دار رايـة للنشـر، حيفـا 2014، وتـمّ إشـهاره في مسـقط رأس المؤلـف في حيفـا علـى مقربـة مـن مدرسـة الـبرج الـتي بـدأ فيهـا مسـيرته التعليميّـة، وصـدر باللغـة الإنجليزيّـة (ترجمـة الشـاعر

والروائي بسام أبو غزالة) عن دار إنر تشايلد برس الأميركيّة عام 2016.

- «حيفا وقصائد أخرى» مجموعة شعريّة، صدرت طبعتها الأولى عن رابطة الكتاب الأردنيّين والصالون الثقافيّ الأندلسيّ، باللغتَين العربيّة والإنجليزيّة (ترجمة الشاعر نزار سرطاوي)، عمّان 2014، وطبعتها الثانية عن المؤسستين نفسيهما في عام 2016، وصدر باللغة الإنجليزيّة، عن دار إنر تشايلد برس الأميركيّة عام 2016.
- «متحف الذاكرة الحيفاويّة»، الآن ناشرون وموزعون والصالون الثقافيّ الأندلسيّ، عمّان 2014، وتمّ إشهاره في نادي حيفا الثقافيّ/ حيفا.
- «مقامات تراثيّة»، الآن ناشرون وموزعون والصالون الثقافيّ الأندلسيّ، عمّان 2015. وتمّ إشهاره في نادي حيفا الثقافيّ/ حيفا.
- «حيفا.. بُرقة- البحث عن الجذور» (الجزء الثاني)، صدرت طبعته الأولى عن دار الجندي للنشر والتوزيع، القدس 2015، وطبعته الثانية عن الآن ناشرون وموزعون، عمّان 2015، وتمّ إشهاره في مركز محمود درويش الثقافيّ في الناصرة، وفي مجلس قروي بُرقة، وفي مقرّ رابطة الكتاب الأردنيّين في عمّان.

- «حيفـا.. بُرقـة– البحـث عـن الجـذور» (الجـزء الثالـث)، الآن ناشرون وموزعون، عمّان 2017، وتمَّ إشهاره في معرض بيروت الدوليّ للكتاب 2017، ومعرض الدار البيضاء الـدوليّ للكتـاب 2017، وفي نادي إكسال الثقافيّ 2017.
- «تطوان وحكايا أخرى»، الآن ناشرون وموزّعون، عمّان 2017، وتمَّ إشهاره في معرض الشارقة الدوليّ للكتاب 2017.
- «حصـاد السـنين.. مـذكّرات مـا بعـد التقاعـد»، الآن ناشـرون وموزّعون، عمّان 2018.
- Haifa and Other Poems, Inner Child Press, USA 2016, Translated and Edited By Nizar Sartawi.
- Haifa Burqa…A Search for Roots, Inner Child Press, USA 2016 Translated from Arabic By Bassam S. Abu-Gazalah.
- Haifa Burqa…A Search for Roots, Inner Child Press, Volume II, USA 2017 Translated from Arabic By Bassam S. Abu-Gazalah.
- Haifa Burqa…A Search for Roots, Inner Child Press, Volume III, USA 2018 Translated from Arabic By Bassam S. Abu-Gazalah.
- «على دروب الأندلس»، الآن ناشرون وموزّعون، عمّان 2019.

- «على مدارج السحاب»، شعر، الآن ناشرون وموزّعون، عمّان 2020.
- «أنطونيو التلحمي رفيق تشي جيفارا»، الآن ناشرون وموزّعون، عمّان 2020.
- Antonio of Bethlehem,Inner child Press,USA, Transleted from Arabic By Bassam S. Abu Gazalah, 2021.
- «هوشيلاجا»، رواية، الآن ناشرون وموزعون، عمّان 2020.
- «الكرملي»، رواية، الآن ناشرون وموزعون، عمّان، 2021.
- «ذات القبعة الحمراء»، رواية، الآن ناشرون وموزعون، عمّان، 2021.
- «صنهاجي في غرناطة»، رواية، الآن ناشرون وموزعون، عمّان، 2022.

- **وصدر له في مجال اختصاصه العلميّ عشرون كتابًا في مختلَف المجالات الاقتصاديّة باللغتَين العربيّة والإنجليزيّة، منها:**

- Public Joint Ventures in Developing Countries, Organization, Management and Critical Issues, (joint publication) United Nations, New York 1988.

- «الموسوعة الاقتصاديّة» (جزآن)، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان/ رام الله 2008.
- «قضايا اقتصاديّة عربيّة»، دار الشروق للنشر والتوزيع، والصالون الثقافيّ الأندلسيّ عمّان/ رام الله 2009.
- «الأزمة الماليّة العالميّة، نهاية الليبراليّة المتوحِّشة»، دار الشروق للنشر والتوزيع والصالون الثقافيّ الأندلسيّ، عمّان/ رام الله 2011.
- «التنمية العربيّة في ظلّ الربيع العربيّ» ضمن سلسلة كرّاس (الرأي) الاستراتيجيّ، مركز (الرأي) للدراسات، عمّان 2014.

• **الندوات الثقافية**: ستون ندوة عقدت في عمّان ومدينة المرية الأندلسية ومونتريال وفلسطين والجزائر، منها:

- ندوة حول مجموعته الشعرية «الوجه الآخر للأيام» عقدت في المكتبة الوطنية، عمّان 2012.
- ندوة عن القصة في الأردن بين الريادة والتجديد، رابطة الكتاب الأردنيين، عمان، 1913.
- ندوة حول كتابه حيفا بُرقة البحث عن الجذور، في مركز محمود درويش، الناصرة، 2015.
- ندوة حوارية مع أدباء من الأردن في جامعة الحاج لخضر، باتنة الجزائر، 2023.

- **المؤتمرات**: أكثر من تسعين مؤتمراً في مجال الاقتصاد منها:
  - مؤتمر الطاقة العربي الثاني، الدوحة، قطر، 1982.
  - مؤتمر البترول العالمي السادس والثلاثون، لندن، 1983.
  - مؤتمر البروتين النفطي العالمي، باريس، 1985.
  - مؤتمر اتحاد الاقتصاديين العرب، الدار البيضاء، 1989.
  - مؤتمر المانحين للسلطة الفلسطينية، باريس، 1995.
  - المؤتمر العلمي الرابع للاقتصاديين الكويتيين، الكويت، 1999.
- **نشر العديد من المقالات الاقتصاديّة في مجلّات وصحف في الدول العربيّة وكندا، منها جريدة الحياة اللندنيّة، ومجلّة «النفط والتعاون العربيّ» مجلّة فصليّة محكّمة تصدرها منظمة الأقطار العربيّة المصدّرة للنفط، ومجلّة «المستقبل العربيّ» مجلة شهريّة محكّمة يصدرها مركز دراسات الوحدة العربيّة.**
- **نشر العديد من المقالات الأدبيّة في مجلات وصحف في الدول العربيّة وكندا، وينشر مقالاته في الوقت الحاليّ في الملحق الثقافيّ لصحيفة «الرأي» الأردنيّة، والملحق الثقافيّ لصحيفة «الاتحاد» العربيّة الحيفاويّة.**
- البريد الإلكتروني: **Smasoud38@hotmail.com**